سلسلة المرأة المقاومة

جمعيّة الرابطة اللبنانية الثقافيّة

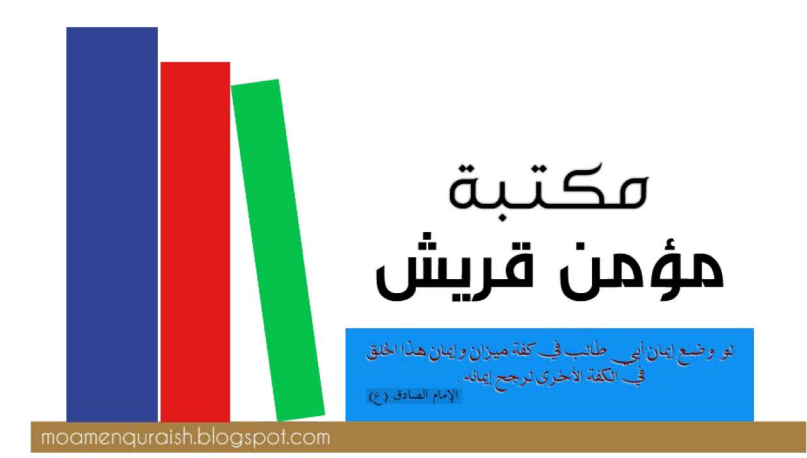
عبد القدوس الأمين

مشاهد من حياة

امرأة مثال

دار الولاء

بيروت - لبنان



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



مشاهد من حياة

امرأة مثال

الطبعة الأولى

ISBN: 978-614-420-120-6



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 25/307
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

سلسلة المرأة المقاومة

تؤرخ لكل امرأة كان لها دور في مواجهة الاحتلال الصهيوني

من ١٩٨٢ م الى ٢٠٠٠م



إعداد:

مركز دراسات المرأة والأسرة والطفل

في جمعيّة الرابطة اللبنانية الثقافيّة

حارة حريك - خلف حوزة الرسول الأكرم (ص) — مبنى الجمعيّات

Email: alrabitacultural_lb@hotmail.com

تلفاكس: 01/453995

عبد القدوس الأمين



مشاهد من حياة امرأة مثال

دار الولاء
للطباعة والنشر والتوزيع

الإهداء

الى سيّدنا وصاحب كل جميل فينا

الى أميننا المؤتمن

سماحة السيّد عبّاس الموسوي

أقدم بين يديك جهداً متواضعاً

لموضوع أنت احببته

راجياً منك القبول

عبد القدوس الامين



المقدمة

إنّ المرحلـة المشرقة التي عاشها بلدنا في ظل المقاومة الإسلاميـة وما حققه الشهداء والمجاهـدون فيها من نصر مبارك على العدو الأكثر حقداً وغروراً على مر التاريخ، جعل منها مفصلاً هاماً وعلامة بارزة يستضيء بها كل مستضعف وكل مقهور يهفو إلى الحرية والخلاص..

فهـي أحيت مـن جديد الثقـة والأمل في عالمنـا العربي والإسلامي المثقل بالهزيمـة والإحباط.. وسجّلت بمسارها صفحـة جهاديّة مشرقـة في تاريخ لبنـان الحديث.. أسست بالتالي لمدرسة جهادية نموذجية لا غنى عنها لكل المجدين فـي الأمة رجالاً ونساءً.. بعد أن بات الجميع يتطلّعون وبشوق إلى استشراف خلفياتها الفكرية والتربوية..



مـن هنا كان لا بد من عمل يوثـق هذه المرحلة من تاريخ الصـراع مع العـدو.. وكل ما حفلت به من معاناة وما قدمته من نماذج وما نثرته من مفاهيم..

فتفاصيل روائع الصور وجليل المهام والمشاهد. لا بد من صونهـا وحفظها كي تضاء بها ذاكرة الأجيـال الآتية وتأنس بها نفوس المتعطشين لقطرات من ريِّها..

وإنّــه من أجـل المساهمــة بتحقيق هذا المشــروع المهمّ وقيامــه.. فإن جمعيّــة الرّابطة اللبنانيــة الثقافية جعلت من أولويّــات أعمالهــا -بعــد التحريــر العــام ٢٠٠٠- النهوض بجانب مــن هذا العمل، وهــو التأريخ للدور الفـذ الذي أدته المــرأة المقاومــة في مواجهــة الاحتلال.. بــدءاً من مرحلة الاجتياح العام ١٩٨٢.

عاملة من جهــة على إعداد مجلد تراجم -لجميع النساء اللواتــي نصرن المقاومة- يحتوي نبذة مختصرة عن جهاد كل منهنّ..

ومن جهة ثانية، إصدار سلسلة المرأة المقاومة -التي بين أيدينا والتــي تتضمن القصة الكاملة لكل أم أو زوج أو أسيرة أو جريحة كان لهــا دور مميز سواء على المستوى التربوي أم المستوى التعبوي أم مستوى الصبر وتحمّل المشاق..

الهدف من التوثيق:

أولاً: المقاومــة الإسلامية برجالهــا ونسائها باتت مدرسة لملايين ممن تفاعلــوا معها وتأثروا بهــا، وعاشوا بين الدموع والفرح والدهشة سلسلــة انتصاراتها وما رافقها من التسديد الإلهي على مختلف الصعد وصــولاً إلى التماسك البديع الذي شمل بامتداده ساحة الوطن كله بسائر أديانه ومذاهبه وأحزابه صانعاً بعد مر المحن نموذجاً حياً لنهوض وطن وعزّته..



وبمــا أن المجتمعــات البشريّــة فطــرت علــى الاعتــزاز

والفخــار بعظمائها وتعيش التلهف لتتعّـرّف سيرتهم، وتتوق لأن تجعلها مثلاً أعلى يحتذى.. لذا كان من حق هؤلاء الّذين هتفوا للمقاومة عن بعد أن نهديهم حزمة من نورها..

ثانياً: إن عمليّة الكشف عن جذور التربية الّتي انصهرت فيهـا عقول المجاهديـن وأرواحهم، وعـن الرصيد الضخم لخزان الفضائـل والآداب المعنويـة والأخلاقية التي أنتجت المجاهدين والاستشهاديين لا بد من جمعها وتحقيقها، على قاعـدة أن أفضـل السبـل لترسيخ النهج المقـاوم هو تعميم ثقافته..

ثالثـاً: لقـد عاش الـدور النسائـي على امتـداد تاريخنا مظلوميّـة لا يستهـان بهـا لجهـة التهـاون الفـادح مـن قبل المؤرخيـن.. نجـم عنـه فـراغٌ وإربـاكٌ باعد بيـن الساحة النسائيـة في عصرنـا ومعطيات رموزها التـي سلفت، على قاعدة أن التاريخ ذاكرة الشعوب ومستودع خبراتها..

مـا قدّمته المـرأة المقاومة مـن تضحيات ومـا أدّته من جليل المهام وعظيم الدور عدا أنه سيبقى أمثولة في التأريخ المعاصـر، فإنه قد كشف عن معطيات هـذا الدور ونتائجه وأبعاده وأظهر:



إن إبعـاد المـرأة عـن الهمـوم الأساسيـة وتحويـل خط سيرها باتجاه قضاياها الخاصة بعيداً عن المشاكل الكبرى للأمة،أوقع السّاحات النسائية في عالمنا العربي والإسلامي

فـــي إرباك كبير. ومكن قوى الاستكبـــار والهيمنة من النّفاذ إلى مجتمعنا عبر اقتناص الثغرات.

غيــر أن الأحــداث التــي استجــدت أظهــرت مــع نهوض المقاومــة لمواجهــة الاحتــلال تجربــة جديــدة، بــرز معها الحضــور الفعال للمرأة المقاومة التي تمكنت من أن تساهم بتشكيــل الإرادة الشعبية العارمــة، وإسقاط عوامل الإحباط وثقافــة الاستســلام مظهــرة أن الحضــور الفعــال للمــرأة المقاومة التي تمكنت من أن تساهم بتشكيل الإرادة الشعبية العارمة، وإسقاط عوامل الإحباط وثقافة الإستسلام مظهرة أن الحضــور الفعّال للمرأة قادر على إحــداث تحوّلات هامّة وحاسمة في مسار الأحداث الّتي تواجهها الأمّة.

إنّ دور المــرأة المقاومة الّذي جسّدتــه عملياً المجاهدة الكبيــرة والشهيدة العزيــزة أم ياسر الموســوي والسائرات فــي دربها والــذي دخل التأريــخ بعطائه وكان غنيّــاً بدروسه وانجازاته بات يشكّل رصيــداً هامّاً للمرأة وبإمكانه أن يكون نواة استنهاضٍ واستقطاب لمختلف الشرائــح النسائية في مجتمعاتنا.. على امتداد العالمين العربي والإسلامي وصولاً إلــى انخــراط الطاقــة النسائية فــي ميدان الفعــل المباشر لمواجهة العدو الصّهيوني ومخططاته الخبيثة.



مقدمة الكاتب

لا ادري مــا هذا الذي بين يديك ايها القارئ العزيز، فانا لم التزم فيــه بما هو معروف من اصول، لا في ادب السيرة، ولا في الرواية أو القصة.

ان مــا اعرفه عن هــذه العائلة الكريمة، ومــذ كنت جارا لهم فــي النجف، وما تلاها في كل مــا جمعته من معلومات، فــي أوراق ومقالات ومدونــات، اضافة إلــى المقابلات التي تجاوزت الثلاثين مقابلة.

كل هــذا الــذي عرفتــه وجمعتــه تشربتــه جوارحــي اثرا وتأثــرا، فبات من الصعب ان يكتب كسيــرة، لما في السيرة من تقريرية وجفاف. وللرواية والقصة اصول لم تكن تسمح لي بالكتابة عن أم ياسر في فرادتها، وكل هذا الاستثناء.



ثم قــررت ان ابتعد عن كل هذا، وانــا اقر بصعوبة ما انا مقــدم عليه، فذهبت إلــى مرقدها الشريــف، وهنــاك وقفت امــام ضريحها خجلاً وانا اقــدّم استقالتي، بل هروبي. اردّد من وجعي معتذراً:

مــن انــا يــا أم ياسر لاكتب عنــك، وأنــا أنا، وأنــت أنت. اقبلــي مني هذه الجهود في جمــع المادة، سأضعها بين يدي مــن يستطيــع الكتابة افضــل مني ومــا اكثرهم هنــا ولست باحسنهم؟ و... و.....

ثــم شعرت بانّنــي منعت من التهرب عبــر فكرة اقتحمت ذهنــي بلا مقدّمــات، فكــرة استطاعــت الزامــي بالكتابة، فكرة اكتملــت واغلقت عليّ باب الانسحاب. الفكرة تقول في مضمونهــا: لــن تبقي المكتبة خالية من كتــاب عن أم ياسر. وان القليــل البسيط خير من الحرمــان. وان ما لا يدرك كله لا يتــرك جله، وان عليّ ان اكتب من اجل هذا النقص الفادح والظالم، وليكن مؤقتا حتى يحل محله ما هو افضل منه.

وعلــى هــذا بنيــت وشرعت أكتــب. معتمدا علــى ما لدي من توثيــق، اعتمادا كاملا، حتى في الحــوار وحديث النفس اعتمــدت فــي مضامينهــا على مــا ورد في المقابــلات التي اجريتهــا انــا وسواي مــع المقربين من أم ياســر، ولم اكتفِ بذلــك بل عرضت كامــل العمل على كل من له صلة وثيقة بها لأحافظ على مصداقيّة ما كتبت. رغم قناعتي بأنّني ما زلت مقصّرا وقاصرا.



شهادة

قــرأت هــذا الكتــاب الذي يروي فــي فصوله سيــرة أمي الحبيبــة والحنون، العظيمة فــي حياتها وشهادتها -وكيف لا تكـون كذلك وهي حفيدة الزهراء عليها السلام حقّاً- فلم أجد فيه ما هو مخالــفٌ لما عرفته عنها، بل هو يحاكــي واقعاً لامرأةٍ مثال قلَّ نظيرها بين أقرانها من النساء. كيف لا؟ وهي التي نــذرت نفسها لله فــكان لها مــا أرادت رغم جشوبــة العيش وصعوبة الدرب الذي اختارته بملئ إرادتها.

عندمــا تصفّحتُ هذا الكتاب، جال في خاطري ذكرُ أمي المعطاءة، ومَثُلَ أمامي طيفُها الحبيب، وارتسمت في مخيلتي ابتسامتُهــا السّاحرة، فبتُّ أقرأ الصفحــة تلو الأخرى بشوقٍ ونهــمٍ كبيرين. فهل هناك أروع مــن أن أعود -ولو بالخيال- إلــى أيَّام خلت عشنا فيها فــي كنفِ أمي الغالية، ونعمنا فيها بدفئها وحنانها اللاّمحدودَين؟

نعــم، هي كذلك، هــي أمٌّ ياســر: زوجَةٌ عاشقــةٌ لزوجها متيَّمــةٌ بــه. أمٌّ مولعةٌ بأمومتها رغم كل مــا تنطوي عليه هذه الكلمــة من تضحيــات. مجاهــدةٌ متفانية فــي سبيل الدرب

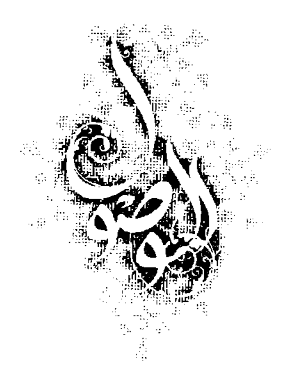
الجهـادي الذي خطَـت والسيد عباس خطاهــا الأولى عليه. فَنِعْـمَ الزوجة، ونِعْم الأم، ونِعْـمَ المجاهدة كانت. وفي ذلك كلــه، كانت مثال المخلوقـة المطيعة لخالقهـا، فصدقت ما عاهدت ربَّها عليه وما بدَّلت تبديلاً.

لذا كان حريّاَ باسم هكذا امرأة أن يُخَطَّ بأحرف من نور في سجـل الخالديـن، وأن تُحْفظَ سيرتُها بيـن دفَّتَي كتاب، لتنهلَ منها كلُّ امرأة اتَّخذت من الزهراء عليها السلام قدوة، ومن أم ياســر مثالاً يُحتذى به. إنَّها امــرأةٌ أقامت تجارةً مع الله، فقدَّمــت النَّفس قرباناً على المذبـح الإلهي، فكانت الشهادة وكان الوصول.

إبنك المحب والمشتاق

ياسر الموسوي





الفصل الأول

تداعيات في سفر

السفر

ساعات وتلك السيـارة الصغيرة تسير مستسلمة للدروب والتضاريس، تأخذها الدروب إلى علو شاهق ثم تنزل بها في وديان عظيمة الانحدار، والارض لا تنفك تغير اشكالها، ترتدي مدنا مأهولة، ثم تنزعها لترتدي صمت البراري، تخلت منذ وقت عن جبالها الشاهقة الارتفاع التي ما برحت تصغر حتى اضحت تلالا ثم تلاشت، لترتدي الأرض وادياً يمتد سهلاً كبيراً بلا نهاية، والسيارة تسير في قلب كل ذلك وكأن شيئاً لا يعنيها، تحمل في مقعدها الامامي السيّد والسائق، وعلى مقعدها الخلفي جلست صبيتان في مقتبل العمر. منيرة التي استسلمت لنداء النوم في هدأة الليل وظلامه، وحدها سهام تسبح في الصمت، تركب في مراكبه المختلفة، صمت جاء مع عباءة الليل، وتعب المسافة الطويلة، استسلم له ركاب السيارة، حتى السيّد، توقف عن الحديث الجميل، ربما يظنها نائمة، أو انه اراد لها ان تنام.

البرد، والصمت، والليل. وهذا الغريب الذي ينتشر في داخلها، يتكاثر ويحتويها، هي لا تعي تماما كنهه وشكله،

فهـو جديد عليها في ثقله، وما يصنعه في الروح. هو كم من المشاعـر المختلفة يـزداد ثقلا مع الوقت، وينمـو في بيئته المفضلة، يتغـذى من الليل وسكونه، وهـذا الجديد المشرّع الابواب. ربما لانه انضوى منذ قليل تحت عباءة الليل.

تنظـر إلـى النافـذة، تحـاول ان تجـد اسماً لهـذا الذي يعتريهـا، زاحفـا مع الصمـت. هو شـيء مغمسـ بالحزن، ويكتنفه غموض غير محبب. والنافذة وان كانت من زجاج الا ان الليـل جعلها كالجدار، كظل ثقيـل. منذ ساعات والنافذة تغيـر الوانها. لقـد تناقص الاخضر الـذي كان يلبسها حين كانت قريبة من بلادها. لقد امتدت اليه الصفرة، ثم غالبته حتـى غلبتـه، وانهـزم امامهـا منسحبا تـاركا لهـا الميدان بكاملـه، ثم جاء الليل ليخوض غمار معركة الالوان، ويمتص رويدا رويـدا صفرة الارض، وزرقة السمـاء، حتى اذا قبض على اطراف المدى وامتص الوانه الفاتحة، تمدّد مزهّوا إلى طرف الطريـق. وحده الضوء المنبعث من مصابيح السيارة ظل يعانده على ضعفه.

تحاول الإجابة عن عشرات الأسئلة التي تتدافع ملحاحة:

- «.. مجهول.. في مجهول..»

كل الأحاديـث التي قيلت عن المكان الـذي تقصده بدت ناقصـة، أو ان تلك الأحاديث عاجزة عن رسم صورة، تركن إليهـا سهـام. لا شـيء سوى المجهـول، وهذا الحـزن الذي يتسلل إلى القلب كالعنكبوت.



تضع راحة يدها تحت ذقنها، تسند بيدها راسها، وتجمع اصابعها على الخد، وتسرح ببصرها في الظلام.

- «مسافرةٌ أنتِ ياسهام... مسافرة.»

كانت تسمع بالسفر منذ كانت صغيرة، تسمع ويرسم الخيال في الذهن صوراً لا حصر لها. حين يأتي جار لهم من سفر، تنشغل به الدنيا الصغيرة حولها. مع العودة من السفر ترى الافراح وهي تجوب المكان، وتسمع الضحكات وهي تحوم على وجوه المشتاقين إلى هذا العائد من ذاك الذي يُسمى السفر. هدايا وألوان جديدة، وفرح. ثم صور اخرى. فللسفر وجه ثاني، مغاير تماما لوجه العودة أو اللقاء، تلك صور الفرح التي ينتهي بها ما يسمى بالسفر. واما في المقلب الاخر حين يبدأ، فهناك وداع، ودموع، مصادرها عيون صغيرة وكبيرة، دموع للمودّعين، وللمسافرين وفراغ في المكان الذي أخلوه، والصمت الحزين بعد رحيلهم.

طوال تلك السنين، كانت تتجمّع في ذهنها صور مختلفة عن المكان الذي يقصده المسافرون، أو يأتي منه العائدون، لكنها صور في أغلبها غائمة، أو تحتل العتمة أكثر جوانبها، صور من خيال محض لا يعتمد على سابقة، أو انها في ذلك الوقت ما كانت لتهتم أو تسعى في محاولة لتوضيح تلك الصور، لم يكن هناك مبرّر، أو حافز يجعلها تستدعيها أو تحاول أن تزيدها وضوحاً.



فأمــر السفر مــا كان يعنيها، فهي أبعد مــا تكون عن أمر كهــذا. من كان يــدري أنها ستكــون في وسطــه، هكذا دفعة واحــدة، هي الأن تقطع المسافــات مبتعدة عن ذاك المكان الحميــم، مكانهــا. وهذا الشعــور الغريب الشديــد الحضور والوطأة، شعور من يبتعد عن نفسه، عن جزء منه أو أجزاء، أو عــن كلــه القديــم. قديمها الــذي خلّفته هنــاك. وما اشد ارتباط الإنسان بقديمه.

أن تبتعــد كل هــذا البعــد يعنــي أن تبدأ مــن جديد، بيت جديــد ووجوه جديدة. وهذا الانســلاخ الموجع، حيث يصبح القديــم بعيداً جداً. دونه جبال ووديان قطعتها هذه السيارة، تغيــر فيها حتى شــكل الأرضــ وألوانها، كأن ممحــاة تمسح شيئــاً فشيئــاً وجودها والصــور التي اعتادت، صــور تتمسك بها فتنفلــت عن متناول العيون حتى الاشــكال المرتبطة به، ليعود بصرها بعد كرتين خائبا حسيرا، فلا يبقى هناك من ملجأ سوى الذاكرة، لتهرب إليها، جامعة ومستدعية اقدمها والجديد، تزيد وتستزيد ليتعاظم وجودها في الذهن، وكأنها بذلك الاسترجاع تحميها، وتحمي نفسها من هذا الانسلاخ.

إنها الآن واحدة من الذين يسافرون، ما خطر ببالها يوماً أن تكون واحدة من أولئك المنتزعين من المكان، ياالصعوبة هذا الانتزاع حين يكون لأول مرة.



انت العمر يا امي

ما بالهـا تشتاق وبعد سفرها مـا زال يحسب بالساعات. تبتعد ببصرها عن النافذة، تمد يدها إلى الحقيبة الصغيرة، تلامس رقة أصابعهـا خشونة الخبز. تخرج مـن صدرها آه مكتومـة، آه لا علاقـة لها بألم الجسد، فهـي أعمق من ذلك بكثير، من جهة القلب تخرج.

- «آه يا خبز أمي»

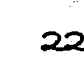
ترفـع الخبـز إلـى وجهها ببـطء يشبه التقديس، وحين يقتـرب الخبز، ويغطـي انفها والفم، تتسـرب تلك الرائحة، رائحة تعرفها ليست حاسة الشم فقط، كل جارحة في سهام تعـرف تلـك الرائحـة، تنتشر فـي جسدهـا، فتستجيب لها حتـى أطـراف ألاصابع، وعلى الوجه يشتـد الاثر، اذ تقترب الحواجـب مـن العيون، وتـرق الملامـح وكأنها علـى وشك البكاء.

تغمض سهـام عينيهـا وتغرق فـي غيمة تلـك الرائحة، تنقلهـا الغيمة فـي استسلام لذيذ، فهي تريـد أن تعود، بكل

جوارحهـا تريد أن تعـود، والرائحة مركـب وغيمة، الرائحة جناح عصفور وسهام تركـب، تذهب عميقاً، تتوغل في زمن بعيـد في حساب السنين، لكنه كالأمس في الذاكرة، ومن يد الحزن تتفلـت ابتسامه وترتسم على شفتيهـا، كأنها صارت هناك، تماما هناك.

ترى سهام الصغيرة تركض، يداعب تراب الأرض أصابع قدميهـا الصغيرتين، يـا فاطمة، ويا إلهـام، ويا منيرة، هي تركضـ والعجينة فـي يدها، وهـن يحاصرنهـا.. تتملص.. تركضـ، والضحكات تتناثر في الأفـق وعلى الصخور، اخوة واولاد عـم، صغار في عمر الزهور، طرابيـن حبق، يسبقون الأم تارة، ويعودون اليها أخرى. الأم تتلفت تبتسم لأعمارهن الصغيرة وهي تسير بخطاها الثابتة رغم الثقل على رأسها، و فالوعاء الكبير ممتلئ بالعجين حتى آخره، والعائلة كبيرة، والخبز سيد الموائد. الأم حجزت منذ يومين دورها في تنور الضيعـة. لا أحد هنـاك الأن فالتنور لهـا بالاتفاق. الحطب كثيـر، وهذه ساعـات الصباح الأولى، والتنـور في الانتظار، مذعنـاً كوليـد البقرة. فاتحـاً فمـه الكبير وقد غـاب أكثر جسـده في بطن الأرض، انه ينتظـر الحطب، سيحمر جوفه بعـد قليل، حطب ودخان كثيف، تدمع العيون فتفركها الأكف الصغيـرة، ثـم نار، نـار عالية تطـرد الدخـان، الوهج يلفح الوجوه الصغيرة الحلوة، تضع الام يدها امام وجهها درعا:

- بعدي عن النـار.. خليكن بعاد يابنات



سهام تنظـر إلى التنور وهو ينفث النــار من فمه الكبير، ألسنتــه تتطاول حينــاً، وتقصر حيناً اخــر، تنقطع وتتصل. ستظل الأم تلقمه حطباً، حتى يسخن جداره الداخلي، سهام تناولهــا من كومــة الحطب غصنا، ترفضــه الأم مرة وتقبله اخــرى، أو تكســره على ركبتهــا لتقصر من طولــه، الخشب قريــب مــن الأم، لكن سهام تحــب المشاركــة، ويسعدها أن خشبتهــا ألقيت في النــار، وتأسف ان رُفضــت، فتحاول من جديد بخشبة مختلفة الحجم.

تنظيف الجــدار الداخلي للتنور يعني انــه أصبح ساخناً. قطعــة القماش تدخــل فاتحة اللون وتخــرج مسودة، وجدار التنور يستعيد لونه. سهام وصحبها يفركون الأيدي، لقد بات الطعام وشيكاً، فالام ترفع الغطاء عن العجين، طابة العجين الصغيرة تنتقل إلى يــد الأم، تتوسع بين اصابعها، ثم تزداد اتساعــاً علــى «الطارة»، ذلــك القرص الكبير مــن القماش، والصغار لا يصبرون، لقد قرص الجوع البطون .

سهام تنظر إلى العجين وهو يتسع، ويكبر كلما شدت الأم أحــد جوانبه على «الطــارة».. سهام تحتضــن وعاء الكشك تنظر إلى حبات الرمان الحمراء المنتشرة في كمية الكشك، الزيت والبصــل الذي أكتسب لون الكشــك زاده ألقاً، الجوع يزيد هذا الخليــط جمالاً. تمد يدها بوعاء الكشك إلى الام، لكــن الوقت لم يحن بعد، فالأم تقول وهي ما تزال تعمل على مد العجينة:



- اصبريلك شوي

منظـر الكشـك المزدهـر بحـب الرمـان يزيـد الجوع، والجوع يجعل الصبر صعباً، والأم ليست خارقة، بالرغم من حركتهـا السريعة المتقنة، وسهام تـرى ان «طلمية الكشك» ألـذّ طعام اكتشف على وجه الأرض. الكشك يتمدد بيد الأم علـى العجينة التي اتسعت فـوق الطارة، وحبات الرمان تلمع منتشرة على كل المساحـة. يزداد اللعاب في الفم الصغير، واليـد الصغيـرة تمتد إلـى البطن، الأم تطـوي العجينة في الوسط وتغلقهـا.. يختفي المزيج الحلـو، والعيون الصغيرة ترقـب انتقال العجينـة إلى فم التنور تلتصـق هادئة هناك، وسهـام تنظر إلـى الكتلة البيضـاء الملتصقة علـى الجدار الاحمر، تجر الام الكتف الصغير:

- بعدي شوي.. هلق بتحرقي شعراتك

منظر العجينة وهـي تستجيب للنار باحمـرار أطرافها، يجعـل رفـع العيـن عنـه أمر صعـب، ها هـو وجـه العجينة يستجيب، تخرج منـه دوائر كالبالونات الصغيرة، البالونات تزداد حمرة، تتحول إلى بقع بنية، تصرخ سهام فرحة:

- طلعت يا إمي



اللهفـة في العينيـن البريئتين جعل صـوت الام أكثر رقة وهي ترجو:

- إصبري شوي حبيبتي

علـى جـدار الفـرن أكثر مـن عجينة وقـد اختلفـت الوانها، العجينة الأولى اصبح لونها كلون الخبز. لماذا لا تستجيب الام؟

- ياأمي..

تضحك الام، وما تلبث العجينة الأولى ان تسقط في الوعاء، وتتبعها الثانية، والثالثة، تمتد اليد الصغيرة بكل لهفتها:

- أح متل النـار ..

- إنطري عليها شوي هلق بتبرد

الانتظار صعب يا امها ولطمية الكشك لا تريد التخلي عن حرارتها، وبصوت يشبه البكاء:

- مش عم تبرد يامي

تضحك الأم:

- هالقد جوعاني يا عمري.

ترفـع الخبز إلى انفها مـن جديد، تتنشق تلـك الرائحة بقـوة، وكأنهـا تشم رائحـة تلك الكلمـة، «يا عمـري»، ذاك النداء الذي تميّزت به الام طوال تلك السنين. يتجمع الدمع في عيني سهام ويخرج من تحت اهدابها المغلقة:



- «أنـت العمـر يـا أمي، مـا طعم الأيـام حيـن لا تكوني، وكيـف تبتسم الصباحات بلا شفاهك؟، صمتك حديث المرايا وصوت القلب، «يا عمري»، وما العمر إلا عجينة بين يديك يا أمـي.. ما اجملك وكل شيء يدور حولك.. يطوف، آه لذلك الوجه المبتسم الراضي...آه لعينيك..»

سهام تغمض عينها وتبحر في تلك الصورة، صورة أمها. تلك الملامح تناديها، وهي لا تملك إلا أن تجيب، وشيء بارد ناعم يلامس القلب، فتستجيب له جوارح سهام كلها.

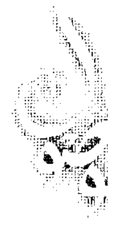
تريد أن تنام هناك في ذلك الحضن الدافئ، تحرك راسها كما كانت صغيرة، رأسها يبحث عن دقات ذلك القلب، كما كانت تفعل حين كانت تنام بحضنها في العمر الذي أصبح بعيداً حتى في المكان. تريد أن تعود وان تتوغّل فيه إلى أقصاه، إلى سهام التي كان يحلو لها أن تغفو على خفقات ذلك القلب، كانت تظل تحرك رأسها على صدر أمها، حتى يصل إليها صوت ذلك الوجيب المتناسق للقلب، لا تستقر، حتى يصبح الصوت في أكثر الحالات وضوحا، فتهدأ ويتسرب السلام اليها منه، كعطر يتجانس انسيابه الناعم مع تلك الخفقات.

لكم كان ذلك العمر حلواً. متى كانت تغفو؟ ومتى كانت أمها تنقلها إلى فراشها؟. تستيقظ وتجد نفسها على فراش نومها، تتلفت، وحين لا تجد امها تقفز راكضة إليها:

- امي.. امي

- فئتي يا عمري؟؟.. تعي ياحبيبتي تعي.

وما اسرع ما كانت تعود إلى النوم، لا شيء اجمل من النوم هناك.. لاشيء اجمل.



اللعب ولغة الزهور

تغمض عينها لتستفيق في ذاكرتها سهام الصغيرة، سهام التي تشبه الفراشة وهي تركض بين الحقول، سهام التلميذة على مقاعد الدرس، والمعلمات.. لكم كانت سهام تحبهنّ، وإن تغيرن في السنة التالية لا يتغير حب سهام لهنّ. في السنة التالية تجلب سهام زهرتين الأولى للمعلمة القديمة والثانية للمعلمة الجديدة. والزهور احدى لغات سهام المفضّلة. في اول الصباح تحمل حقيبتها وتركض إلى الجدار الصغير الذي يفصل منزلهم عن منزل أم خليل:

- يا أم خليل بدي ورد.

أم خليل في الفجر تكنس أراضي الدار.. وسهام تطل برأسها وعلى اطراف اصابعا تقف، ترتفع بجسدها ما استطاعت لتطل براسها من فوق الجدار المنخفض:



- بدي ثلاث وردات يا خالتي... ثلاث وردات..

تمازحها أم خليل ضاحكة:

- ثلاثه؟؟

- وحدة لمعلمة..

ثـم تبـدأ سهام بالعـد وهي تطـوي اصابعهـا الصغيرة، وتنتبه قبل ان تكمل لتصرخ:

- لا.. لا.. اربعة.

وتذهـب أم خليل، ومن أفضل زهورهـا تأتي باربعة زهور نضـرة لامعـة، ترفـع عنهـا أشواكهـا خوفاً على يـد سهام الصغيـرة. أم خليـل وهـي تسلمهـا الزهـور المبللـة بندى الصبـاح، تعطيهـا الزهور مـع قبلة فـي أغلب الأحيـان، أو ملامسة للخد، والوجه المغضن يقطر حبا:

- قمر.. قمر انتي.. شو هوي الورد الي بيحمل ورد؟.

ما أجمل ابتسامة أم خليل، وما اجمل الودّ في عينيها.

زهـور أم خليـل مـلاذ سهـام حيـن تتوقـف البريـة عن إنتاجها. لقـد اعتادت سهام، وهي في طريقها إلى المدرسة أن تقطف مـن البرية زهوراً مختلفة، أغلبهـا صغير، تصنع باقة من صغار الزهور متعددة الألوان، ثم باقة أخرى وثالثة.

لقـد اعتادت على تقديم هذه الزهور، ربما لانها شاهدت مـا تتركه زهورهـا من أثر حلـو على الوجوه، ومـن ردة فعل تترجم إلى قبلة، أو ضمة حنون، وسهام تحب أن تترك اثراً، أن تتـرك فرحـاً، كان سهـل عليهـا أن تترك أثـراً بالزهور، وبغيرها، تعلم انها كانـت محبوبة، حتى من الصغار أمثالها كانت محبوبة. تذكر أن الخلاف مهما طال لا يمتد لأكثر من



ساعـة، هذا ان وجد. هي لا تظنه موجـودا اصلاً، فذاكرتها لاتحويه، ما كانت لتستطيـع. قلبها بكل بساطة لا يريد لأحد زعـلاً، حتى وإن لم تكن هي السبـب، حتى وإن كان الخلاف بيـن اثنتين سواها. كانت تسعى جاهدة لهدم هذا الخلاف. الخلاف أو الزعـل نبتة شائكة، لا تنبت في تربة هذا القلب، لكـم أحبـت سهـام طفولتهـا، أقرانهـا والأهـل والمدرسـة والفسحات، وتلك الـدروب. والبراري، والطرق المختصرة، وإن اقتضـى الأمـر تسلق بعض الحجارة فـلا مانع، لا شيء يمنع ان يكون اللعب هو كل الدنيا.

حتـى العمل فـي المنـزل، ومساعـدة الأم، يصبـح لعباً بطريقـة أو بأخـرى. تقـوم بالعمل وهي تغنـي وتركض، وقد تدحرج الشـيء المطلوب منها جلبه، أو تلعب به حتى توصله إلـى مكانه. أي فرصة ممكـن أن تستثمر لتتحـول إلى لعب. والضحكـة تأتي من كل مكان. والوقت الضائع كان هو الوقت المكتسـب المشبـع بالضحكات، وقـت يتدفق فيـه اللهو في الغـرف، النزول إلى التبانة، الصراخ والضحكات العالية في التبانة، ونثار التبن الناعم المتطاير بين الايادي، والمتساقط فوق الرؤوس والثياب، إلى تسلق الحائط الصغير، والصعود إلـى سطـح المطبخ، إلى شجيـرات التين وشجـرة الرمان، والسيارة الصخرية.



جلب الماء من البئر عمل ضروري، وما أكثر تكراره، وهو فـي نفـس الوقت أجمل الألعـاب، ابتداء من إنـزال السطل،

والمــد المتواصل بالحبل حتى وصول السطل، والأذن تصغي بانتظــار وصــول صوت ارتطامــه بالماء، ثم عليهــا الانتظار ومساعــدة السطــل علــى الامتلاء بتحريــك الحبــل صعوداً ونــزولاً، وإلى الجانبيــن، حتى تستشعر اليــد الصغيرة بثقل الحبــل، ذلــك الثقل الــذي يعني ان السطل قــد غرق بعد ان امتــلأ بالماء عن آخره. ويبدأ الرفــع، وتنتقل اليد الصغيرة من عقدة إلى عقده، وبعد جهد يطل السطل برأسه من فوهة البئــر الصغيــرة، ودائما يرتطــم بحافتها، وهــو يهتز وينثر حولــه الماء الذي يتساقط مع صوت صــداه في داخل البئر. تملأ سهام الإبريق بواسطة السطل، نصف الماء يسكب على الأرضــ ليعود إلى البئــر، ونصفه الآخر في جــوف الإبريق، وصوت امها:

- وينك ياسهام؟
- هاياني جايي
- شو تعبتي؟؟..
- ...
- بس تتعبي وقفي يا عمري، انا بجيبن.

يــا عمري .. كلمة كثيــراً ما كانت ترددهــا الأم مع لمسة على الرأس، وملامح الوجه كأنها تقول ادخلي إلى الصدر إن شئت، وفي العيون دعوة للاحتضان تصعب مقاومتها.



الغضــب استثنــاء في وجــه الأم، وان وجد فهــو لا يمكث

إلا قليــلاً ، يمــر مروراً على ملامــح وجههــا دون ان يستطيع البقاء، كمن لا يجد مكاناً، فالوجه مسكون بطبيبته، والحنان الفائضـ يحتل الملامح دومــاً. لا تتذكر سهــام متى تغضب أمها، رغم المشاغبات، والتخريب الناتج عن عاصفة اللعب البريء. يستغرب الكبار من الرجــال والنساء تلك الظاهرة العجيبة في طبيعة امها كثيرا ما كانت تسمع سهام من يقول لامها، وهو يقارن بين شغب الصغار، وردة فعل الام:

- شو بالك طويل يا حجي
- مش هنـي مبسوطين؟؟.. خلص

كأن ضحكــة الصغار زادهــا فــي كل ذاك التعب الطويل الــذي لا ينتهي. ما رأت أمها تستريــح، تستفيق سهام، والأم غارقــة في العمــل، وتنام، والأم على حالهــا، متى كانت تنام أمها؟ ومتى تستريح؟ حتى على مائدة الطعام كانت آخر من يجلس، وإن جلست فهي تطعم هذا، وتقرب الطعام لذاك، أو تقوم لتجلب ناقصاً هنا، أو تقضي حاجة لذاك، لا تتذمر، ولا تشكو، ولا تطلب المساعدة، مهمــا كان العبء ثقيلاً، وكأنها تنسى أن أحداً سواها يستطيع المشاركة.

المساحة المشتركة

منذ صغرها، سهام كانت تحاول المساعدة بما تستطيع، دون أن تطلب الأم، فالأم راضية دائماً، ودائماً تستطيع، والأب يرق لهذه الأم فهي لا تهدأ، يقترب منها ويضع يده على ظهرها وبتعاطف شديد يقول:

- ارتاحيلك شوي يا أم هاني
- ليش..؟؟

تستغرب أم هاني! لماذا عليها أن ترتاح؟ هي في عافية، ولا تشكو من شيء، لم عليها ان ترتاح اذاً، وما طلبت منه شيئاً، وهو رغم أشغاله الكثيرة، كان حريصاً أن لا يحتاج منزله لشيء، يعلم أن عائلته كبيرة، من أبيه إلى إخوته وأبناء إخوته، الكل في رعايته. لم يكن كبير العائلة سناً، شخصيته وقدرته على العطاء جعلته رئيساً للعائلة، والكل كان يطيعه، هذا الرجل القوي الممشوق القوام، الحسن الهندام، هذا الرجل الذي ينظر إلى الجميع، ويحنو على الجميع، لم تشغله تجارته عن النظر إلى أدق التفاصيل، يمسك بكل الخطوط،



ويديرها بحكمة بالغة دون أن يكون هناك خلل أو نقص، يكره النقص أو التقصير يعمل بالاحتياط كي لا يقع، ويردد دائما:

- يكون في زيادة أحسن

منزل كثُر قاطنوه وكثُر ضيوفه حتى التخمة، وهو الرجل المشغول دائماً، وكزوجته لا يمل ولا يشتكي ولا يقصر، هذا الثنائي الذي لا يعرف التعب، لكم كانت تردد سهام ما يقوله الناس عن ابويها باستغراب:

- سبحان الله، طنجرة ولقت غطاها.

فأم هاني هي صورة رديفة له، أو هي نسخته الثانية، هذا التشابه الواضح حد التلاقي، فهو يبدأ وهي تكمل، كأن المهام وزعت بينهما بلا تضارب، بلا نقاش، وبلا اتفاق، حتى وإن تداخلا لا يصطدمان، كأن التداخل مدروس، أو جاء وفق المطلوب تماما، مخطط له دون تخطيط. تداخل كانت تراه، فابوها يعمل في المنزل، في ترتيبه، في الحطب، وفي إعداد المونة، في «القورما» مثلاً، كان أكثر الجميع نشاطاً، وأمها في ذاك التداخل شديدة الوضوح، فهي مع الضيوف تحل مكانه، وحتى في المهمات تستشار، وعند الخلافات تحسم دون الرجوع إليه، وكأنه هو من يقول، دون ان يكون لهذا التدخل اي خلل أو تبعات، إنها نسخته الثانية.



كل ذلك كان ناتجاً عن تشابه واضح بين الشخصيتين، لكم كانت سهام تعجب لهذا التشابه الذي لا يكون مثله حتى

بين الأخوة، هل هو صدفة عمياء أم قدر مقدّر، طير يقع على شاكلـه طيرٌ أخر، محض صدفة أو حـظ، أو انه غير ذلك. كأن يكـون جهـدا بذل لفترة مـن الزمن، وظهر أثـره تشابه فـي الطباع، أو هـي العِشرة تلك التي تصهـر وتشكّل، وتعيد صياغة الطباع، تنسجم وتتقارب ثم تتوحّد. إن كان مكتسباً، ولـم يكـن قدراً هـذا التشابه، فلمـاذا لم يسر فعـل العشرة على أبيهـا وخالتها خاتون «أم أحمد» زوجـة أبيها السابقة؟ لماذا لم تستطع العشرة صهر هذا الاختلاف الذي أدى إلى الطلاق؟

وهـي تحب خالتها خاتون. لم تسـأل، ولم تعرف ما الذي حـدث؟ لماذا تـرك أبوها خالتها خاتون؟ هـي وجدت الأمر هكذا طبيعياً، لا يُسـأل عنه كما وجود البئر والرمانة وسطح المطبـخ المنخفض، هكذا رأتـه منذ فتحت عينيهـا. أبوها أعطـى خالتهـا خاتـون منـزلاً ليس بعيـداً، وهي فـي رعاية الأب كسواهـا، لن تحتاج شيئاً بوجـود الاب ومقولته الدائمة تشملها:

- يكون في زيادة أحسن

تماما كما هو منزلهم.



وأحمـد الأخ الأقـرب إلى سهام، لم تكـن تعرف ما معنى أخ، غير شقيق، كل ما كانت تعرفه أنه الأخ الأقرب إلى قلبها، وأنـه الرجل الثاني فـي كلا المنزلين، منـزل خالتها خاتون

ومنزلهم، وهي تطلب منه أكثر مما تطلب من أبيها.

وبينها وبين خالتها خاتــون حب متبادل، «الحجّة خاتون» جــزء لا يتجــزأ من هذا الكل الحميــم، ينتقص اكتمال هذه اللوحة الفائقة الجمــال إن لم تكن الخالة خاتون فيها، حتى أم هاني كثيرا ما كانت تردد:

- خذي هاي لعند خالتك خاتون..

- قولــي لهــا نحن ناطرينــك.. مــا تجي بلاهــا، ... ما حنتغدى بلاكي.

لــم تكــن سهام تــرى للطــلاق وجهــاً قبيحــاً، يــرد هذا الاســم أحياناً علــى مسامعها، حين يلجــأ المتخاصمون إلى أمها وأبيهــا، ويصل الشجار بين الزوجيــن حتى يتردد على مسامعها ذلك الاسم الــذي يستنكره الحاضرون، ويحاولون دفعه، كانت تراه تشابهاً فــي الأسماء، فطلاق أبيها وخالتها خاتــون لا يشبه ما يحدث، أو ما تسمع عنه. وهي لا ترى عيباً لا في خاتون ولا في أبيها، ولا حتى في هذا الطلاق. ما شعرت سهام يوماً أن هناك مشكلة في كل هذا.

الطريق القصير

تبتسم وهي تتذكر خالتهـا خاتون، ومُحال ان لا تستدعي صورة ذاك الطريق فبيت خالتها خاتون، محطة من محطاته، محطـة حميمة محببـة، كل محطات ذاك الطريـق محببة، لكم سلكته سهام، لا شيء يضاهي جمالية ذاك الطريق، هو محفور في الذاكرة، بل هو من يربط مفاصلها.

رغـم البعـد تشـم رائحـة أشجار الكـرز والتيـن، وترى العصافير التـي لا تكف عن الطيـران والزقزقة، بكل الوانه تـراه، حتـى ترابه وحجـارة جانبيـه. محطات هـذا الدرب عديـدة، بيت خالتهـا خاتون محطـة، ودكان أبيهـا محطة، ومقام النبي شيت في آخر الرحلة اليومية.

تنظـر إلى منيـرة النائمـة، وكأنهـا تستدعيهـا للدخول إلـى الذاكـرة، إلى العـودة. ها هو الطريـق، جانباه ذراعان ممدودتـان في نداء حميم لا يقاوم، سهام فيه وهو يستقبلها كمـا تستقبـل أشجاره الطيـور، سهام ومنيـرة عصفورتان، ومقام النبي شيت يستدعيهما.



مهمـا طال هـذا الدرب فهـو قصيـر، لا تمـل شجيرات الكرز من التتابـع ، ولا تكف البساتين عن طرح جمالها على الجانبين، مزهوة بتنوع اشجارها. والناس بين ذاهب وعائد، أعمارهـم شتى وفرحهم واحد، مـا أكثر الالوان والضحكات في ذلك الشارع.

هـذا الوقت المقتطـع من اليوم هـو اجمل ما فيـه. آخر رشفـة في اليوم، رشفة حلـوة، كما هي آخـر رشفة في قدح الشاي. حلوة لانها خالية، تشبه استراحة المحارب. فهي في آخـر النهار حيث أنجزت كل المهام، في هذا الوقت الفاصل بين النهار والليل. تلك المساحة الحرة، الجميع يراها حرة، لا سيما تلك الأعمار الطريـة، تتفلت كما العصافير في هذا الوقـت الجميل. وهذا الطريق يليق بها، من منزل سهام إلى مقام النبي شيت.

يدخلـون المقام من دارتـه الواسعة الخضـراء، وللمقام حب وتقديس فـي القلوب الصغيرة. لا أحـد منهم يفكر من أين جاء هذا الود وهذا التقديس؟ أهو اكتساب من الكبار، أو هـو شيء يبثه المكان، مع العطر الذي يستقبل الداخلين؟ أو هو السكينة التي تحط كما الحمام على جنبات الروح، فتهدأ الخطوات عليه؟



تُخلـع الأحذيـة، وتلبس الوجـوه حباً خاشـعً، وفي العيون احترام شديد لصاحب المقام الطويل، الراقد وسط الحجرة الصغيرة، يرتدي الأخضر مهيباً بذلك الطول الفريد. تركع

الصغيرتان، وصوت سهام:

- هنا الراس يا منيرة.

وعند الرأس تُقرأ الزيارة، وبعد الفاتحة تُطلب الحاجة، وما أكثر حاجات الصغار! والشمع وفاء للنذور، وما أكثر النذور! وما أكثر الشمع المذاب على تلك الرفوف! الشمع الذائب، وألوانه العديدة التي اختلطت في مزيج استثنائي، حيث تشكلت منحوتة لونية فائقة الجمال، منحوتة لديها الكثير لتقوله من خلال تشكيلاتها الفريدة، وسهام تحب الإصغاء. المنحوتة الشمعية تلك، تشبه سراً من الأسرار بدموعها المتجمّدة التي تحولت إلى اعمدة بلوريّة تستقطب الضوء، وتظل تشرب منه حتى ترتوي وتصبح كأنها هي مصدر الضوء، فتلتمع كما أنوار المكان.

حتى اذا انتهت الزيارة، وطُلبت الحاجة، تنتعلان الأحذية عند الخروج ضاحكتين، لقد استراحت طفولتهما قليلاً، وهي الأن تعود اليهما، وتعودان إلى ذلك الدرب بناسه وعصافيره، واشجار التين واللوز والكرز، وللحديث الذي لاينتهي، عن النهار أو ذكريات النهارات البعيدة، وياخذهما الطريق إلى الخالة خاتون، وكرمها الفائض حناناً وضيافة وتدليلاً، بمديلها الابيض وحركتها البطيئة التي تشبه العباده، ويدها الحنونة جداً وهي تلامس الرؤوس.



ثم إلى دكان أبيها، كل شيء في الدكان مجاناً مع قنينة

«كازوز» أيضاً، الأب ما كان يكتفي:

- خذي بعد هاي... شو رأيك هول طيبين..

وإن استدعى الأمر يعطيهما نقوداً ليشتريا من جاره إن كان هناك صنفٌ لا يوجد عند الأب.

والطريق مهما طال ستقصره الحمّص المحلا، والحديث الحلو المغمس بالبراءة، وكل ما جلبتاه من الدكان.



الرجال والعناية الفائقة

تشعر سهام ان الجيوب تمتلئ، كما امتلأ الذهن من تلك الصور المسترجعة، والقلب يرتوي حباً من عينيّ الأب. كرمه ليس في اليد فقط، ما اليد إلا امتداد لذلك الحب في عينيه، سهام تستشعر ذلك الحب في وجه ابيها، بل هي تراه مرسوماً على ملامحه، ويشتد وضوحاً بين الحواجب والعينين حين يحدثها.

حين يحدث الأب أخاها هاني أو أحمد، ثم ينتقل بوجهه إليها، تتغير ملامحه فور الانتقال، فترق حتى تقطر حبا. هذا الجدّ، وتلك الصرامة في الصوت والملامح وهو يُحدث اخويها عن عمل أو مشورة، يذوب كله، ويختفي دفعة واحدة حين ينظر إليها، هناك يُحدث ويطلب، وهنا يصغي ويستحثها على أن تطلب منه.

لا أحمد ولا هاني يجدان غضاضة من هذا الفارق، وما اعترضا عليه يوماً. فالبنات كائن حساس، يعامل بعناية فائقة، لا مكان للخشونة أمام الرقة. للبنات وضع مختلف، هذا ما يراه الاب. تسير البنت على القلب، وتنام تحت

أهداب العيون لو شاءت، تلك نظريّة الأب، وأبناؤه أخذوا منه هــذا التعاطف، وأبوه كان كذلك. جدها الذي كان له كل تلك الهيبة والحضور الاجتماعي، كبيراً كان، لكنه يتصاغر حتى التماس مع طفولتهن. من كان يريد شيئاً عزيزاً وتقف مهابة الأب والجـد حاجزاً، يجعل البنات وسيطـاً. ان اراد الفتيان شيئـاً عزيزا يدفعون البنات للطلـب، ضمانة للاستجابه، أو حتى خجلا، أو تهيباً يمنعهم من ذلك. تعترض سهام احياناً:

- انت قول له يقبل.. ليش ما بقبل.
- عارف انو بيقبل بس انتي قولي انا بخاف.
- بتخاف؟؟
- مش بخاف، بخاف.. بستحي منو

تستغـرب سهام لماذا يخاف، أو يخجل؟ هي لم تكن تراه كذلـك. حيـن تقف أمـام جدها تبحـث عن الرهبـة، أو عن حاجز الحيـاء، فلا تجد سوى تلك الابتسامة واللهفة، وذلك الحب في العينين، ودائماً يكون جوابه:

- بس هيك بسيطة..
- تكرم عيونك.. غاليه والطلب رخيص.

وقبـل أن تطلـب احيانا، مجرد الوقـوف امامه كان يكفي ليقول:

- شو.. بدك شي.. ناقصك شي..

هــذا هو جدهــا المتدفق حيويـة ونشاطاً علـى كبر سنه.



الأرض تعني لـه الكثيـر، الكثير جـداً، الأرض بأشجارها وحيواناتهـا وإنسانهـا، بـكل شـيء فوقهـا، لـم تكـن عيناه الطيبتـان تستطيعان غض النظر عن إنسان هـذه الأرض، قريباً كان أو بعيداً. يكفيه أن يعرف بأن أحداً ما بحاجة إليه، أو أنـه يستطيع أن يفعل شيئاً هنـا أو هناك. والغريب في كل هـذا انه كان يستطيع، لا يرد طلبا ولا يعود خائبا ابدا، وكأنه امر يسير مهما بدا صعباً، ففي ذلك لطالما كان يردد:

- الله يسهل الأمور.

وأنـه بحـول مـن الله دائمـاً يستطيـع، الله يمـده بالقوة والتوفيـق. هذا ما كان يـردده دائماً، ما قام بعمـل إلا وأتمه علـى أحسن مـا يكون، لذلك كان اللجوء إليـه يزداد، وكانت كلماته النابعة من القلب تفعل فعلها في الخلافات، بحكمتها والصـدق تحسـم. حكمـة استمدهـا مـن صمـت الأرض وأشجارهـا. وفعـل يخرج ممزوجـاً بطيبة قلبه، كـرم وإيثار يتدفـق، كان ذلك طبع فيـه، صادق وكريـم وميسور الحال، مسمـوع الكلمـة، مطـروق بابه لحـل مشكلة هنـا أو خلاف هنـاك. أبوها ورث عنه كل ذلك، لم يكـن ولده الأكبر، ومن دون قصـد اتجه هذا الإرث إليـه، كما يتجه ماء النبع. فارق واحد، الأب يحب التجـارة، والجد للأرض يميل قلبه وهواه، وتجـارة الابن وافـرة الرزق من كـرم متأصل فيـه، فالكرم يجلب الرزق، وتلك مقولة متوارثة.



أثر الموت الأوّل

جدهـا ظل عاشقا للأرض، كبُر في السن وانحنى ظهره، وظلـت الأرض تستقبله، وظـل هو يسعى إليهـا، يشم ترابها ويحدث الأشجار، يأنس بها وتأنس به، أواصر الود تلك كانت متينـة الحبال، مـا انفـك ذاك التلاقي بين الجـد والأرض يتواصـل يومياً، بلا انقطاع. بل كان الجد يزداد اقترابا كلما كبر فـي السن، لتصبح هـي سلوته بعد ان حمـل عنه اولاده كامـل الاعباء، تقارب استدام واشتـد حتى شارفت المسافة بينهمـا على الانحـلال، وجاء الوصـال والتحـم الجسدان، جسد الارض وجسد الجد، أغمض الجد عينيه. تتذكر سهام بكل وضوح ذلك المشهد.

كان أول مـوت تراه، زحـام وضجيج وبـكاء، الدار يغص بالنسـاء والرجال، يحتشد اللون الأسود فـي غير عاشوراء، والمنزل يكتظ بالناس، يتردد بين جدرانه بكاء متنوع الأداء، بعضه خافت، وآخر كالآنين، ويشتد بعضه كصوت صادر من جريح. وهناك في الغرفة الكبيرة كان جدها، ممدداً يلتحف غطاء أبيضاً.



كانــت تريد مــن كل قلبها أن تقول لكل تلــك الأصوات أن تسكت. فالجد نائم فقط، هدوء جسده لا يعني سوى أنه نائم، نائــم بهدوء وعمــق، لطالما احترمت هي نــوم جدها، كانت تسيــر على أطــراف أصابعها حين ينام بعــد الظهر، وتعض شفتيهــا، ويلتصق رأسها بالصدر إن أصدرت صوتاً عن غير عمد. كانت ترى أن جدها يتعب، ويستحق النوم. لابد أن تعبه كان كبيراً في ذلك اليوم لينام هذا النوم الطويل.

لم تشعر سهام حينها بأي حزن، جدها نائم نوماً طويلاً، نائــم فقط، لم تكن تبكي وهي تنظــر إليه، كانت تبكي وهي تنظــر إلى أمها وبقيــة العائلة، الــذي كان يُبكيها هو الحزن الشديــد الــذي التف حول المنــزل وقاطنيه، وهــي فيه وفي قلبــه. كان حزنها مــرآة، وقلبها الــذي إعتــاد المشاركة هو دائمــاً مرآة شديدة الانعكاس. الحزن يختفي حين تنظر إلى جدهــا النائم. تراه هادئ الملامح هانئاً في نومه، حتى أنها كانت ترى ابتسامة رضــا تحوم على ملامح وجهه المحبب، ليست على شفتيه بل هي على وجهه كله، جدها نائم، وسعيد في نومــه. تلك كانت قناعة يركن إليهــا قلبها الصغير، دون أن يستطيــع هــذا الواقع الــذي يقول غير ذلــك أن يغير تلك القناعة.



لــم تكن ترى مبرراً لكل هذا البكاء، لكنها احتفظت بهذا الاعتراض. فكل هــذا الذي يحدث كان غريبــا عن عالمها، وهــي لا تستطيــع اقتحامــه أو الاعتراض عليــه. حاولت أن

تفهمـه في البدء، لكنها لم تستطـع. استسلمت ليس للحزن، إنمـا لهذا الواقع غيـر المألوف، والذي لم يكـن محبباً. وما هـو الا صورة شـاذة، مزعجة، لا تتمكن مـن تغييرها، تريد لهـذا الحزن أن ينقضـي، وأن تعود اليها دنيـا الأمس، تعود الضحكة للمنـزل، تعود الحركة القديمـة الحميمة الهادئة، الخاليـة من هـذا الحزن المريـر. ويستيقظ الجـد ليرتدي ثيابـه، ويركب الحمار، ويتهادى وإياه فـي الحقول. أو تركب أمامه كما كانت تفعل تتكئ على صدر جدها الدافئ، وأحدى ذراعيه تحضنها خشية السقوط. ورقبة الحمار تمتد أمامها، وهـي تراقب أذنيـه الطويلتين اللتين لا تكفّـان عن الحركة. وجسدها الصغير يهتز ذلك الاهتزاز المؤنس الرتيب.

سيستيقـظ جدها حتمـاً، وإن طال نومـه. سيعود المكان إلـى سابق عهده، ويخلـع هذا الحزن وذلك البـكاء المرير. وهي ترجو أن يكون قريباً وبأسرع وقت .

تنظر إلى الجد، إلى يديه وقدميه وملامح وجهه الساكن الراضي، وتنتظر في كل لحظة أن يتحرك، تراه ما زال يغفو، فتخرج من غرفته، تهرب من الكبار فبكاؤهم يبكيها، تهرب إلى ضحكة الصغار ولعبهم.



الجـد لم يستيقـظ، كان تعبه طويلاً، ونومـه طويلاً. نقل مـن تلـك الغرفة، ذهب إلى مـكان أكثر هدوء. هـذا ما كان يقـال، مكان مريح لنوم طويل. في البدء ما كانت تصدق أنه لـن يعود، ذهب إلى الجنة ولـن يعود، أهلها لا يكذبون، ولكن

الفكرة لا تستطيع الدخول، وإن دخلت لا تستطيع المكوث.

ظلـت لأيام تنظـر إلى الطريق الترابـي، حيث كان يظهر جدها من خلف المنعطف. كانـت تنتظر إقتحام جدها هذا المشهـد الخالـي، لكنه لم يفعـل، عتبت عليه مـراراً ، ودار حـوار مع الكبار ، بين اسئلة حائـرة واجابات لا تكفي: لماذا لا يعود؟.. المـكان هناك جميلٌ ومريحٌ، وكما يريده الجد؟.. لمـاذا لم يأخذها معـه؟.. المكان بعيد والطريـق طويلة؟.. ربما هو مكان للكبـار فقط... لكنها تحب صحبة هذا الجد، وهي تشتاق إليه.

وظهر في جوارحها ذلك الشيء الجديد القاهر، المسمى بالشـوق، ومع الوقت أصبح الشـوق شيئاً غير محبب. الشوق شيء غير مريح، يصنع في القلب وجعاً ، كإصبع تضغط أو يد تعصر، وهي تنظر إلـى أماكنه الخالية، ما عادت تدخل إلى أماكنه الخالية خوفـاً من تلك اليد التي تعصر القلب. كانت تبكي شوقاً لجدها ، كلما رأت أثراً من آثاره.

مسحت سهام دمعاً، هي إلى الآن تبكيه. لا تبكي جدها أو تبكي المـوت، تبكي من هذا الوجع الذي يصنعه الشوق. هي لا تبكـي الموت، الموت شيء غريب، ومجهول، وغير مفهوم، وهي لا تبكـي شيئاً غير مفهوم. مر المـوت مراراً في الحي، واقترب من بيت الجيران. لكن الشوق شيء آخر، انه موجع، ليس مشاعراً فحسـب، انما هو ألم ملموس، يشتد حين ترى آثاره، حتى يُبكيها كأي وجع شديد.



ثـم اعتـادت علـى غيـاب الجـد، وتغيّـر شـكل الأمكنة الفارغة، لكـن شيئاً في أحد زوايا القلـب، في زاوية قصيّة، كان يسكـن كرهها للمـوت. حاسمةً وبشـدة تبعد عن ذهنها احتمـال اقترابه مـن المقربين إليها. ويشتـد عنف خفقات القلب حيـن تقترب خاطرة الموت من الأم أو الأب أو الإخوة أو مـن السيّد، هـي لا تريـد لنفسها شوقاً موجعـاً مثل ذاك الشوق الذي عذبها كثيـراً، لا تريد أن تستعيد مثله، ولا ذاك الفـراغ الذي لا يمتلئ، وإن صغرت أو كبرت الأشياء حوله، لا تريد أن تستعيد ذلك الشوق الموجع الشديد القسوة. بعد كل تلك السنيـن ما زال قادراً على إخراج دموعها، ذلك الغياب المرير الطويل بلا نهاية.



ملجأ الأتراب

تمسح الآن دموعها، هي الآن في غياب مشابه، غياب يخفف مرارته أنه غياب مؤقت، وترجو له أن لا يطول. سهام لا تحب أن تغيب عنها صورها الحميمة، وهي تكره هذه اليد التي تعتصر القلب. هي تحب أشياءها، تحب بشدة ناسها والأهل، تحب بعمق أشدّ مما تراه في أقرانها.

هي لا تكره، أو أن الكره ضامر في قلبها، حتى لا يكاد يرى، أمن أجل ذلك اتسع المكان للحب، حين اخلى الكره له المكان؟ كانت تستغرب كيف أن الخلافات بين أقرانها تمتد وتصل لحد الأذى أو القطيعة، كيف يصبح كرهاً ويمتد زمناً قبل أن يذوب؟! تظنه مصطنعاً يتعمده أصحابه، يصنعونه لسبب لا تدريه، ويبذلون جهداً لإبقائه، فهو في نظر سهام شيء لا يبقى إلا بجهد.

لم تتذكر أن هذا حدث معها، أو لاقاها حتى في منتصف الطريق، قد لا تحب صحبة شخص لأنه يختلف عنها، عن ذوقها، عن اهتماماتها. قد تتجنب صحبة ما، كما تتجنب بعض الألعاب القاسية أو غير الممتعة أو المملة، وتتجه إلى

الألعـاب التي تتناغم وروحها. تلك هي طريقتها في التعامل، أن تتجنـب ما لا يرضيها، لا ان تكـره، ولماذا تكره؟ الابتعاد يكفيها ، فهي لا تحطم الاشياء التي لا تحبها، لا تعرف الهدم.

ماهـرةٌ هي في فض الخلافـات، دون أن تعي ذلك، كانت مستودعـا للشكوى، قادرة على نزع الحقد، هي لا تدري كيف ولمـاذا أصبحت مع الوقت ملجأ الأتـراب؟! ربما لأن أترابها كانوا يعرفون ميلها لتبسيط الأمور. تقول باستغراب:

- بسيطه... عشان هيك زعلتي؟

ومـا اسهل الحلول عندها، كلام مقنع وعلاج بسيط، فان كان الخلاف على امتلاك حاجة، تقول:

- شو هي محرزي ..عطيها اياه ..أنا بعطيكي غيرها.

وحين ترى خلافاً وصل إلى القطيعة تتدخل دون ان يطلب منها وتسأل:

- ليش ما سلمت عليها

- هي كلما تشوفني تعمل حالها مش شايفتني.

- شـو راح يصيـر يعنـي إذا إنت وقفـت إدامها وسلمت عليها.. اي وبوسيها كمان...

- بالله



- اي ليش لا.. مش كنتو مبسوطين مع بعض

- مبلا.. كنا مبسوطين..

- مش بتحبي ترجعو متل ما كنتو؟
- .. ....
- بس سلمي عليها وبوسيها بترجعوا متل الأوّل واكثر.

هكـذا بكل بساطة، أزالت الخلاف. سهل جداً. ولا يحتاج إلـى جهد في رأي سهـام، الخلاف هو الصعب في رايها، هو الذي يحتاج إلى جهد لكي يبقى.

كانـت أكثر أقرانها رفقـة، مسموعة الكلمة ومحبوبة، هل هـذا شيء بالوراثـة، هل أخذت ذلك من جدهـا وأبيها، من أمهـا؟! أهو شيء يتنفسه المرء في المكان، في هذه الدائرة الصغيرة، منزلها، حيث ينمو مع الوقت، ويتشبع به القلب في فترة نموه؟ اهي صور تنعكس على جدار الروح ولا تبقي مكاناً لسواها؟ ربما من أجل ذلك كانت محبوبة، كثيرة الأصحاب.



بين عباس والسيّد

يــا للبرد، مــن أين يأتــي هذا الهــواء الثلجــي؟! السيارة مغلقــة بالكامل، تتأكدّ سهام من زجــاج نافذتها. قاسية هي لسعة البرد هذه، انه برد الصحراء. يقال أنّ للصحراء برداً يختــرق حتى العظــام. تجر علــى كتفها الدثار، هــذا الدثار فكرة مثالية، بتوصية منه كانت فكرة الدثار.

نظــرت إليــه وهو يجلســ أمامها قــرب السائــق، عباءته الملقــاة على كتفه هي دثاره، عريسها هــذا كان أكثر خبرة، فهــذه ليست سفرتــه الأولى إلى العراق، فهــو يسكن النجف الأشــرف منّذ سنيــن. تنظر إلــى عمامته الســوداء، وكتفيه العريضيــن، أنّــه شديــد الاهتمــام ولا تغيب عــنّ ذهنه أدق التفاصيل، يشبه بذلك عباسها القديم.

منّذ التقته وهي تبحث عن عباس فيه. غاب سنيناً، وحين عاد لــمّ تجد عباساً فيه، ابتسامته وحدها كانت الرابط بين الشخصيتيــن. وهــي مابرحت منّذ عــاد، تقــارن بينه وبين عباسهــا القديم، عباس الصغير، وعبــاســ الصبي، وعباس الفتى المراهق الكثير الحركة، الضحوك، المشاغب، عباس



الذي كان حاضراً بشدّة منّذ السنوات الأولى.

كانـت هي واخوتها ينتظـرون الصيـف، فالصيف حياة، الصيـف فراشة، والشتـاء شرنقة باردة، فـي الصيف يأتي عبـاس ومنيرة، هما أبنا عمها الأكبـر القاطنين في بيروت، فـي اول سـاعـات وصولـه، كان عباس يركض فـي الحقول، فبيـروت سجـن، والضيعة فسحة الدنيا. وفـي الصيف تغلق المدارس أبوابهـا. ويتفلت الصغـار، يطول النهـار لأجلهم وتتسـع البيادر. وعباس لا يهدأ، ينظر بفـرح إلى كل شيء. العائلـة تكبر في الصيـف ويكتظ بها المنـزل، لا أحد يشعر بضيق المكان.

عباس أقـوى منهـا، ومـن كل الاتـراب. عباس حاجـة وضرورة في أكثر الاحيان:

- هذا ثقيل مّا بقدر احملو..
- أنّا بحملو

يحمله عباس، وفي أكثر الصعاب يدخل عباس يزيح ستار الخوف بجرأته، تستمد هـي والاتـراب شجاعة منه. التبانة، البئر وسطلـه الثقيل، السطح وتسلق الجـدار، حتى السيارة الصخرية، كان هو السائق. تبتسم سهام لذكر السيارة، منّذ متى وهي هناك؟!



تلك الصخرة الكبيرة الجاثمة تحت الاشجار، من نحتها لتكون مقعدين طويلين كمقاعـد السيارة؟! وعباس لا يتخلى

عـن مقعـد السائق، يطلق لبوقـه العنان، والبـوق ليس سوى فـم، والمقود مـن هواء، والسيارة تلّف الدنيـا وهي ثابتة في الأرض.

- «يـا أيتهـا الطفولة متـى انقضيـت؟!.. وكيف غادرت خلسـةً ومـن أيّ بـاب؟! فـي أيّ ليل تسللـت والصغار نيـام؟ استفاقوا ولـم يجدوك، وجـدوا انفسهم كباراً هكذا دفعة واحدة!».

سهام لا تدري متى كبرت. وجدت نفسها كبيرة، كاليقظة من نوم عميق، كانتقال عبـر باب، خطوة وتمّ العبور. هي مّا كانت تريد ترك طفولتها، كيف حدث هذا ومتى؟

لـم يكن بيـن الطفولة والمراهقـة انتقال. كبـر الجسد، واختلفت بعض الشؤون والشجون، لكنه لم يكن سوى امتداد، يأخـذ من بعضـه إلى بعض الآخـر دون انفصال واضح، هل هـو الفاصـل بين العمـل واللهو؟ لا، فالعمل فـي المنزل كان منـذ الطفولة، واللعـب واللهو والضحكات مـا عاقها الجسد الـذي كبر. فمتى كان الانتقال؟؟ وكيف تم الفصل؟ حتى هو عباسـ الصغير، ظلّ عباساً وإنّ كبر جسده، حتى حين دخل معسكـرات التدريـب الفلسطينية، كان دخولـه يشبه حماس الطفولة ورغباتها.



لـم يكبـر حين أصيب هنـاك، وعاد بقـدم مكسورة، لقد استبـدل قدمـه ذات «الجِبـار» بعصـا معكوفـة الطرف، بل

اعتبـر عصـاه قدماً ثالثة. كانـوا يستغلون عـدم قدرته على اللحاق بهم لينتصروا عليه. يتحرشون به ويفرون ضاحكين، فيمسك بهـم معتمداً على طرفها المعكوف. وقدمه البيضاء لـم يمنعهـا الجبار من الزحـف حتى اهتـرأ طرفها الصلب وبانت خيوط اللفائف، وجدار الجبار الصلب لم يعد ابيض، لقـد تلـون بعشرات الرسـوم، وعدد لا يحصى مـن الكلمات المقـروءة وغيـر المقـروءة، وبعضها كلمات سهـام، لم يبقَ احد الا وكتب على الجبار، كان يحف عباس بالسكين كلمات هجاء كتبـت وهو نائم. وعصـاه كانت يده الطويلـة، وأكواز الرمان العالية لم تكن بالمتناول لولاها. لكم استعانت سهام بعصاه تلك، وصاحب العصا رؤوف حنون في كل أحواله. لم يكبر عباس، عباس اختفى، سافر طويلاً ولم يعدّ.

هـذا مّا اكتشفته سهام حين قالـوا لها إنّه عاد. كانت في الحقول تلهـو، ركضت إلى الدار حين سمعـت بعودة عباس، وخلفهـا تركض الضحـكات، وتتساقط في الذهـن كل تلك الصـور، سعيدة بعودة عباس، والشوق المزدحم اليه يدفعها إلى المزيد من الركض، وقد اضحى اكبر من سرعة قدميها، حتى اذا وصلت إلى مدخل الدار اقتحمته وفي فمها صرخة.



علـى مدخـل أرضـ الـدار وقفـت مذهولة، وقـد عقدت الدهشـة لسـان فرحتهـا، كان يقـف هنـاك وقـدّ أحاط به الرجال، جسده، كتفاه العريضـان، لباسه والعباءة، عمامته السوداء، ولحيته الخفيفة، يتحدث والجميع يصغي باحترام.

مـا سمعت حديثـه، ولم تقتـرب، ظلت واقفـة مذهولة. تلك العاصفة فـي ذهنها منعتها عن الحركة. بحثت عن ردة فعل فيهـا فلمّ تجدّ، جامد كل شيء، وذهول بلا موقف، لا انحياز ولا نفـور أمام هـذه الصورة الجديـدة تمامـاً المجردة من عباس.

لقـد فـرت صـورة عباسـ، اختبأت فـي داخلهـا عميقاً، وأغلقت خلفها الباب، شعرت انها أمام انسان آخر، عليها أنّ تبنى مشاعر جديدة.

في اليوم التالي، حين اختفى أثر الصدمة اقتربت بحذر، وعادت تبحث عن عباس فيه، كانت تنظر إليه، تتابع حركاته والكلمـات، هذا السيّد جديد تماما، لمّ يكن عباس فيه، لكن السيّـد وإنّ قل كلامه حلو الحديـث، وان اصغى ظهرت على شفتيه ابتسامة عباس.

كان ينظـر إليهـا، وكانـت تسال في سرها هـل هو الاخر يبحث عن سهام فيها؟ سهام هنا، لمّ ترحل، ولم تتغير. كان يستحثهـا علـى الكلام بلطـف شديد، تتابـع ابتسامة عباس فيـه، لكنها ابداً لم تكـن تنظر على انه عباسـ، فشتان بين هذا وذاك.



ثـم هدأت سهام، وأخذت موقفاً مريحاً، فهذه الشخصية الجديـدة ليسـت سيئـة، وإنّ كانت شخصية عباسـ أفضل. ثـم بدأت تشعـر باهتمامه بها، طفولتهـا تضحك لاهتمامه،

سعيـدة باهتمـام السيّد إذ تتناغم مع صـورة عباس، عباس الذي كان يهتم بها.

سمعـت حديثاً بعد ذلك مفـاده أنّ السيّد سيتزوج قريباً، ويأخـذ عروسه معه، فصـارت تتخيل العروس، وترسم لها صورة في ذهنها، صورة لامرأة كبيرة طويلة، وقورة وصامتة، وإن تحدثـت فحديـث ينـمّ عن معرفـة وعلم وديـن، حديث يصمت أمامه الكبار كحديث السيّد، وألبستها نظارة أيضاً.

رغبتها في التعرف عليها تشتدّ مع الوقت وحب الاستطلاع يغريهـا، وهي تـرى الكبـار يتهامسـون، وكأنهـم يعرفونها، اقتربت وكان الباب مفتوحاً أمام رغبتها تلك، وقفت تسألهم عن تلك المرأة ومن تكون، هل تعرفها هي؟ فضحكوا وقالوا:

- اي بتعرفيها
- مين؟
- انت..
- أنّا؟!



صعقـت للحظات، ثمّ ضحكت مـن هذا المزاح الثقيل. لا يمكـن إلا أنّ يكـون مزاحاً. وحين عرفـت مدهوشة أنّ الأمر جاد، رفضـت بشدّة، بـكل طفولتها رفضت. ففكـرة الزواج بالأصـل كانت بعيدة، وإنّ اقتربت حينـاً، فهي لا تشبه زوجة رجل دين، لا تشبهها ابداً. ولمّ ترِد مطلقاً في ذهنها، ولا هي تستطع الدخول. قالت بحسم أرادت له أنّ يكون قاطعاً:

- لا.. مستحيل

كان الجميع راغباً في هذا الزواج إلا هي، ولأنّهم راغبون حاولوا إقناعها، أبوها، أمّها، وكل من له صلة وتاثير، وكانت هي تتعجّب من اقتناعهم بالأمر، تقول باستغراب:

- زوجة رجل دين؟!

هي لا تصلح لذلك ولا تريد.. وحين أبلغوا السيّد برفضها، جاء اليها، لكم كان ذلك محرجا، انّ للسيّد هيبة، وبخجل شديد قالت:

- كثير بنات بيتمنوا ... بس أنّا مّا بدي

وبكل أدب ورقّة، وبنفس ابتسامته الآسرة تلك قال:

- ليش؟!

الخجل يزداد، وأصبح ممزوجا بالتعاطف والارتباك

- لأنـي... لانـي مّا بنفـع زوجة رجل ديـن و.. وكمان مّا بدي.

طلـب أنّ يحدثها علـى انفراد ولها بعد ذلـك أنّ تقرر ما تشـاء، فوافقت. دخـلا إلى غرفة جانبية، وهـي عازمة على الرفض مهما كان الحديث. الجميع ينتظر ويتهامس، وان بدا اليأس واضحاً في الوجوه، فهم يعرفـون سهام. شخصيتها القوية مرنة متعاونة، وقلما ترفض أمراً تسطيعه، وإنّ رفضت فالأمر محسوم.



طـال جلوسهـم في الغرفـة، يتهامسـون بيأس لـو كانت

سهـام تريد لقالت منذ البداية. وهي لم ترفض الا لان الامر محسوم لديها، هـم يعرفونها والأمل مفقود. صاروا يفكرون بالبديلـة مـذ رفضت سهـام، والبحث عن اخـرى ضروري. فبقـاء السيّد ليس طويـلاً، ولكنه أصرّ علـى المحاولة، قبل الحديـث عن البديـلات. مضى وقت طويل والبـاب مغلق ما يـزال، ثم انفتح البـاب وخرجت سهام مبتسمـة. نظر اليها الجميـع بياس أمام تلك الابتسامة، ابتسامة تعني الانتصار، انتصـرت إذاً وأصرت على الرفض، وهذا امر متوقع، لكنهم مع ذلك سألوا:

- شو؟؟
- مشي الحال
- ما غيرتي رأيك؟
- لا عم قلكن مش الحال
- مّا فهمّنا مشي عاشو؟
- قبلت
- عنّجدّ!

كان الفـرح عارماً، خرج السيّد مبتسماً، جلس وهو ينظر إليّهـا بود سعيد. كان فرحه بها واضحـاً، كيف غيّرت سهام رأيها؟ وماذا قال لها السيّد؟ كيف استطاع اقناعها؟؟. حتى هـي لا تدري. ليست الكلمات وحدها، رغم الحديث الجميل، هنـاك شيء كان يتجمع مـع الكلمات، مشاعـر تتكدس على



عجل عجيب، لم تشعر سهام إلا والقلب قد غيّر قبلته.

لـم يكن حديثـا عاديـاً، كان مختلفـاً، ووقعـه عليها كان عجيباً. تحدث عنّ الدنيا، عن الهموم، عن الأحلام بالتغيير، عن الأسرة عن العطاء، والآخرة الخالدة، عن الله ورسوله.. و.. وتحـدث طويلاً عـن الزهراء، تحدّث عنهـا حتى دمعت عينـاه، وبكت سهام، وذابت بعد ذلـك كل هواجسها، وماتت الكثير من الاسئلة حين قال بكل صدقه:

- سأكون معك خطوة بخطوة، اعتمدي عليّ فلن أهملك أبداً .. سأكون معك دائماً، هذا وعد ...

بعـد هـذا الحديث صـارت تـرى السيّد بشـكل مختلف، بمشاعر لمّ تألفها سابقا، وبدا قلبها يتوجّه اليه.

أيـام عجولة مختلفة عن كل أيـام الدنيا. فرح الأهل كان طاغيـاً، الأب والأمّ والأعمام، وأبوها كان أكثر الناس فرحاً، وكأنّـه ملك الدنيا بمـا فيها. وهي في غمـرة كل هذا، كانت كمن يركب غيمة. تم عقد قرانها على السيّد، أهداها الشيخ شمس الدين عباءة وقالت:

- نعم أنت وكيلي



وفـي جمع تميز بالاحتشـام، وبكثرة الحضـور من رجال الديـن، ذهبـت الشيخ شمسـ الدين إلى حيـث الرجال، لم يمض وقت طويل حتى ضجذت الدنيا بأصوات الرجال:

- اللهم صليّ على محمد وآل محمد

تبعتهــا النســاء بالزغاريد، ثمّ قبلات، وفــرح في العيون التــي دمع بعضها من شدة التأثر. ولبســت سهام العباءة، لا يظهر إلا وجهها وأطــراف الأصابع. وأصبحت زوجة السيّد، والسيّد لا يفارقهــا، ولا تفارقه ابتسامته الفريدة. لكَم كانت تلك الأيام عجولــة، شهرين كليلتين. وسهام مشغولة والقلب يخفق، وهذا السيّد يزداد جمالاً، وحديثه يزداد عذوبة.

لقد تبدلــت الدنيا سريعــاً، انشغل القلــب والجوارح بكل هــذا الجديد، ولم تفكر سهام في شــيء، حتى اقترب موعد السفــر. موعــد كأنهــا كانت ساهيــة عنه، حيــن سمعت عن الإعداد للسفــر، واسم العراق يتردد انقبض قلبها. ستسافر اذاً، ستتــرك قريتهــا والأهل، كيف هي البــلاد هناك؟؟ هل تشبه بلادها؟ ستكون وحيدة، مقطوعة، بعيدة..

اختفت ابتسامة سهــام وحلّ الخوف. لاحظ السيّد ذلك، فــرق قلبه لها، صــار يهون عليها ما استطــاع. خائفة سهام، أعادهــا الخوف طفلة من جديــد، أعوامها الخمسة عشر لم تكــن كافية لنزع الخــوف من هذا الجديــد المختلف تماماً. هــي تعلم منذ وافقت على الزواج أنهــا ستذهب إلى العراق، ولكن العلــم شيء، ومواجهــة الأمر عند حدوثــه شيء أخر، العلــم شيء عابر ولا يستقر، شيء ممكــن نسيانه والانشغال عنه، أما المباشرة فشيء مختلــف تماماً. ستخطو إلى ذلك المجهــول، لقــد أحست بضعــف شديد، إنها خائفــة، إنها لا تريد. بكــت سهام، بكل طفولتها بكــت، وأحاطها السيّد بكل



عطف الدنيا، كانت لهفتــه وتعاطفه لا يصدقان، هو يفهمها ويفهــم مــا يعتريها من خــوف. حدثها طويلاً، ثــم وجد حلاً مثاليا، أعانها كثيراً:

- نحن بأول الصيف.. سنأخذ منيرة معنا..

كان اقتراحــا فــي مكانــه، المدارس لن تفتــح قبل ثلاثة اشهــر، وحين تفتح المدارس تكون سهام قد اعتادت، هدأت ســهــام، فمنيرة رفيقة دربها، الحاضــرة في كل زوايا العمر، ذهاب منيرة معها سيجعل السفرة الموحشة مأهولة كامتداد للوطن، موصولة بالماضي عبر منيرة.

كان وداع الأهــل صعبــاً، لا تريد سهام استعــادة أوجاعه التي ما تزال حية.



التسبيح والطائر ومنيرة

للسواد عمق، عمق بلا نهاية، بلا حدود، لا شيء خلف نافذة السيــارة، بحر هائل من المجهول. تقتــرب بعينيها، يلامس رأسهــا الزجاج في محاولة لحصر الرؤية، لو أن نوراً، دائرة صغيرة منه تكفي لتحسس عمقه، لا شيء في هذا السواد. لا شيء فيه، وفيه كل شــيء أيضاً، ففي جوفه إن حسن المزاج صــور افتراضيّة في غاية الجمال والتدفق، كما في بئر أرض الدار حين يحتوي بظلامه مدناً، وحيوات لا حصر لها، صور يصنعهــا خيال طفولتها المتوقد علــى الجدار الاسود. كانت تسبح فــي ذاك الســواد بعينيها الموصولتيــن بخصب ذلك الذهــن الذي يخلق الاف الصــور الجديدة والمختلفة في كل مرة. تنظر عميقاً وتتكشف الطبقات، ويزداد الخيال تدفّقاً، يأخذهــا بعيداً، وبــكل جوارحهــا الصغيرة كانــت تستجيب سابحة فرحة..



- وين المي يا سهام

صــوت أمهــا يعيــد السواد إلــى مكانــه، فتستعيــد يدها الإحساســ بثقل الحبل حيــن تجره على أثــر الصوت، وكأن

صـوت أمها هو الـذي يقوم بأول الفعل. ثقـل الحبل يقول أن الدلو قد امتلأ غارقاً في الماء، تسحبه، وهي تستمع بسعادة لتلـك المعزوفة، معزوفة الماء المتساقـط عن جوانب الدلو إلـى عمق البئر، حيـن يهتز الدلـو صعوداً، تـزداد النغمات وضوحـاً. وكلما اقترب الدلو من السطح أصبح صوت سقوط المـاء أقوى. ليتها تستطيع الأن سماعه. لكم كان رذاذ الماء ذاك، قادراً بصوت تساقطه على النفاذ إلى روحها، وصناعة أثر جميل، وكأنها أنغام تطلقها يد تجيد العزف.

تتنهّـد سهام وهـي تستذكر البئـر وسواده، هـذا السواد الممتـد عبر النافذة، مختلف عن سـواد البئر فهو غير قادر علـى استدعاء مـا يؤنسها. هذا السواد قـادر على استدعاء الخـوف، واستدعـاء آلاف الأسئلة، التـي تتلاحق سريعاً بلا إجابة. هـذا السواد الذي لا قعر له، يزيـده المجهول عمقاً، ويجعـل قلبهـا يخفق بغير تلـك المشاعر. ليـس حميماً هذا السواد الذي تراه الآن.

تشيـح بوجهها وتلامس أصابعهـا حبات المسبحة وتعاود التسبيح...

- سبحان الله، سبحان الله..

التسبيح هذا فكرة السيّد، أعطى لكل منهما مسبحة

- التسبيح يجعل الوقت قصيراً والفائدة كبيرة.

عن تسبيحة الزهراء يقول السيّد:



- إنهـا أفضـل التسبيحات لأن رسـول الله علمها لأحب الخلق إليه، لابنته فاطمة الزهراء..

وأي شـيء يرتبـط بالزهراء يحبـه السيّد، ذكـر اسمها وحده كان يكفي لتتغير ملامح وجهه.

كما اقترح بعد ذلك الاستغفار وتسابيح أخرى:

- ... وأفضل الأعمال هو الصلاة على محمد وآل محمد.

هـي تشعر بالإمتنان، لقد أعانها هذا التسبيح كثيراً، فهو يشعرهـا بالأنس. هذا الترداد، أنس مـا عهدته من قبل، إنه رقيـق يتسرب إلى اعماقها، ويستطيـع النفاذ في زحمة هذا القلـق. يتساقط في مكان قصي من وجدانها، كماء السماء، فينبت نباتاً جميلا لم تعرفه سابقاً.

ضـوء صغيـر قادم من أقصـى الطريق، هـي تأنس لهذا الضوء الذي يقتحم الظلمة، هو مصباح سيارة قادمة بالتجاه المعاكـس، يبدأ صغيـراً، وهو على قلته يكسـر هذه الرتابة العميقة الصامتة، تظل تتابعـه وهو يكبر متقدماً باتجاهها، ينثر فـي السيارة دفقاً من حياة. تلتفـت إلى جانبها، منيرة غارقـة فـي النـوم، تتكـئ برأسها علـى الزاوية بيـن الباب والزجاج الخلفي. وجهها هادئ ونفسها منتظم، رغم اهتزاز جسدهـا الخفيف، يبـدو نومها عميقاً مريحـاً، والدثار يلف كتفهـا وذراعها الأيسر ويمتد إلـى ظهرها في احتواء حنون، وكأنه يتشبث بها حاضناً. ذراعها اليمنى وحدها خرجت من

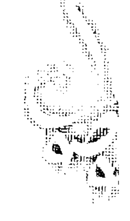


تحت الدثار كأنها تستطلع المكان، وهي تستقر في أحضانها. ما زالت أصابع يدهــا تمسك المسبحة التي بدت غافية فوق الدثار. الأصابع تفصل حبات المسبحة، لا بد أنها غفت وهي منهمكة بالتسبيح.

الضــوء يزداد حضــوراً ينعكس على وجــه منيرة الهادئ، تســرح سهام في تفاصيــل الوجه، يرتفع منســوب الود لهذا الوجــه المحبــب الأليف. رغبت سهــام وهي تنظــر إليها أن تمسد رأسهــا، أن تحضنها وتقبلها مراراً. وينسحب الضوء، والوجــه عالــق في ذهنهــا، بكل توهجــه وخطوطــه الناعمة الهادئة... ويظل هذا الود يتدفق.

- «منيرة... يا وجهاً يرتدي عبق البراري، لوحة رُسمت بكل ألوان البــراءة الطاغية، يا كتاباً سيظل يُقرأ بلغة الطفولــة ومفرداتهــا الفريــدة، بخطوطهــا الناعمــة السهلــة البعيدة عن التعقيد، صافيا كصفائها، نافذة على الماضي القريب والبعيد.

- منيرة نافذتي إلى تلك الامكان الحميمة. درب موصل كدرب البيادر، منيــرة حبل مربوط يمنع من السقوط كحبل البئر، شكراً لأنك هنــا، حضورك هذا الواضح الأليــف حجب الكثيــر من القلق، وعبــره تتنفس ذاك الهواء العليل القادم من الوطن».



تستمع لأنفاســ منيرة المنتظمة، غارقــة منيرة، أخذها

ذلـك الطائر الساحر، حام حـول رأسها وشرب يقظتها على مهـل، وجرهـا اليه ذلك النعاسـ اللذيذ، غاصـت إلى عمق الغياب الحلو.

- «أين أنت أيها الطائر الساحر، متى تحوم على رأسي، لكَم انا بعيدة عن الراحة، أتنقّل ما بين الخوف والملل وأحزان الفراق. لكم انـا بحاجة اليك يا طائر النوم، في هـذا الوقت بالـذات، لكم انت عصـيّ حين يكون المرء احوج ما يكون اليك! تعال أيها الطائر، تخلّ عن حذرك... اف لك، لكم أنت تشبه الدوري...»

كانت تسير على أطراف أصابعها لتراه عن قرب.. صوت الحجارة تحت أقدامها يجعل الدوري يطير، أي شيء يتحرك يجعـل الدوري يطيـر، احتـكاك أوراق التينة تكفـي لفراره، صـوت ارتطام بعيد يجعله يفـر عنيفاً، وهـو يقتحم الهواء، وأجنحتـه الصغيرة تصدر صوتاً اكبر منها. حتى مع الهدوء والصمـت كانت تنظـر اليه في وقفته القلقـة على الاغصان يتلفت في كل الاتجاهات، واذا نظر اليها يطير.



- «وانت يا طائر النوم مثله، أي شيء يطرق باب الذهن يجعلك تفـر، سؤال يكفي، هاجس مـن أي مكان، وما أكثـر الهواجس والأسئلة الآن.. بالله عليك تعال، متى تحوم فوق العيـون المسهّدة؟ متى تحـوم؟ متعبة انا، ماذا تريـد لتأتي؟ أغلقت أبـواب الهواجس والأسئلة، أغلقت بصعوبـة كل الأبواب لتأتـي، والقلق ريح تدفع

الأبـواب، تعــال سريعــاً، فأنــا لا استطيــع الصمــود، سيخترق هاجس أحد الأبواب بقسوته ويجعلك تفر. انا بحاجة إليك الآن بالذات، بحاجة إلى عالمك الغائم، إلــى ممحاتك الباهــرة تلك.. أنا خــارج سور عالمك اعاني.. وانت لا تحوم أيّهــا النوم، كأنّك هاجرت إلى مكان بعيد أيّها الطائر الساحر، وهجرتني».

لا بــدّ أنّ السيّــد مشغول بالتسبيـح ويظنها نائمة، وهي لا تريــد أنّ تقطع عليه تسبيحه تعاود سهــام تسبيحاً بالصلاة على محمد وآل محمد، عساها تغفو والصلاة على لسانها.

تتمســك بالصلوات، تلوذ بها من تضاريس قلقها الوعرة، وشيئاً فشيئاً تذوب وعورة الدروب.

- اللهم صلّ على محمد وال محمد

يمتــد صوتها إلى الداخل، شفّافا ليّنــا، يصطحب نسيما وعطرا، كأن فجرا يطل في اول الافق..

- اللهم..



حدود الابتسامة

جاءهــا صوت عريسها حفيفاً وعميقــاً كأنّه يأتي من بئر، في البدء كان صوته في نومها غائماً بعيداً لكنها تسمعه كمن يطرق بابها المقفل، ثمّ يدخل ويجرها إلى عالم وسطي بين اليقظــة والنوم، يأخــذ بيدها إلى عالم ممــوه غائم، ويزداد صوتــه وضوحاً، يأتيها مــن عالم الوعي، وهــي مّا زالت بين غيوم النوم، كأن للصوت يداً ترفعها من ارض إلى أرض عبر جدار صخري كما في الحقول..

- سهام.. منيرة.. وصلّنا عالحدود.

فتحــت عينيها، وجه السيّد وهو يرتدي بسمته التي تقطر عطفاً، والضوء القادم من النوافذ يؤطر جوانب الوجه، ويلقي بذهبــه على الملامــح الاليفة، يغيــر الوّان لحيتــه الخفيفة، ويصنــع هالة صفراء خلفه. والزجاج الأمامي للسيارة تنقّط بأضــواء عديــدة صفــراء صغيــرة مختلفة الأحجــام. تكبر وتــزداد اتساعا مــع تقدم السيــارة، وهي تقتحــم المساحة الضوئية التي تزداد اتساعا، وينسحب الظلام المحيط، يفرّ متسارعــاً، تــاركاً الساحة لهذا الضوء الأصفــر المنتشر في

كامل المساحة أمامها. والسيّارة تدخل إلى ساحته فيتساقط علـى حديدها والزجـاج، وينّفذ إلى الداخـل ليعيد كل جزء فـي السيارة إلى حالة الوضـوح المتيقظ. منيرة ما زالت في عالمها خلف السور.

- منيرة ... منيرة .. قومي .. الحدود
- ها.. ها.. شو.. شو في

خرجـت منيرة ومـا زال ثوبها عالقاً بالسـور، تبتسم لها سهام بود:

- وصلنّا عالحدود

السيارة تقترب، وذلك القوس الذي يربط جانبي الطريق قد بدا عملاقاً في الليل، يزيده شموخاً تساقط الضوء عليه. وبدت السيارة، وهي تزحف اليه كدمية ضئيلة الحجم، وعلى القوس كلمات تزداد وضوحاً مع الاقتراب، سهام تقرأ:

« الجمهورية العراقية... وحدة حرية اشتراكية...»

هنـاك صـورة ضخمـة لحاكم العـراق، توقفـت السيارة علـى مقربة منها. كل شـيء على الحـدود كان مختلفاً، كأنّ جسدهـا قدّ اغتسل وقتها مـن كل آثار النوم. وهي تنظر إلى تلـك الصورة، وتنظـر إلى مّا حولها مدهوشـة. امامها عدد مـن السيارات الصغيرة والكبيرة، تغـرق سهام في تفاصيل تلك الصورة، لقد اقتحمـت ذهنها اقتحاما وسط هذا الليل وصمتـه. أكثر شيء واضـح في تلك الصورة هـي الابتسامة



الكبيـرة التـي ارتسمـت على الشفتيـن وهي تدفـع الشارب الكثّ. لم تستطع تلك الابتسامة التماهي أو الاندماج، فبدت خارجـة مصطنعة، أو هــي لا تشبه الابتســام. كانت من نوع آخــر، لقــدّ شعــرت سهــام أنّ هــذه الابتسامــة لا علاقة لها بالمــودة أو بالترحيــب. كانت تشبه ابتسامــة ظفر، ابتسامة مــن أحكم الطــوق على فريستــه. ابتسامة من علــو، وهي لا تحــب الابتسامة الفوقيــة. ابتسامة لا تدخل إليك ولا تدعوك للدخول اليها، بسمة على الشفاه وحسب، بسمة مفصولة عن باقي الملامح.

فــي كل سنوات عمرها الصغير كانــت البسمة، وما زالت شعــاراً ودلالــة. ليصبــح للبسمــة تأثيــر عليهــا أن تمتد من الداخــل، تكتمل لتظهــر، أنّ تخرج من مــكان أعمق، لتظهر حيه تنبض، وما الشفاه سوى منّفذ لتلك المشاعر التي تعتمل في ذاك الداخل لتخرج عبــر الشفاه. وتنتشر في الوجه، كل الوجــه، ليتسرب اثرهــا إلى كل المحيــط. ابتسامة تولد في الجــوف أولاً، فتلقي على الوجه كله ظلالاً محببةً مؤنسةً لمن قابلها. فيتحــول المحيط إلى مرايا لا تملك سوى الانعكاس، هكــذا فقط تصبح قادرة على التغيير، فتنتشر كالعطر ويلف أريجها المكان.



سهــام لا تعــرف ابتسامتهــا، يقولون إنّهــا بشوشة الوجه كثيــرة الابتســام، وهي لا تعرف كيف يُصنــع ذلك. أنّه شيء يعتمل في داخلهــا ولا تراه، شيء يتحرك ويطفو. مشاعر في

الداخـل تستجيـب وتتحرك، تنمو وتفيض. ومّـا خروجها إلا فيضـاً يظهر على شكل ابتسامـة.. ابتسامـة ودّ، والودّ كثير فـي الداخـل. ابتسامة امتنــان، ولا شيء يعيق شعـور سهام بالامتنــان.. هـو استجابـة لانعكاسـات كل انـواع الجمــال، استجابـة تلقائيـة. وكأن الجمال يلامس فيهـا وترا مشدودا سريـع التأثـر، فهي تحسـ الجمال بشـكل فائـق وتتأثر فيه بسهولـة، تستجيب إلى حـدّ الدهشة. مّا أكثـر الاشياء التي تدهشهـا في هذا الكـون! وتستغرب حين تـرى استجابة من هم حولها أقل، فتصرخ متأثرة مدهوشة:

- الله ... شو هيدا... ليك.. ليك مّا أجملها!!

وترى ردة فعلها أكبر بكثير من ردة فعل سواها فتستغرب ايضاً:

- عجيب مش شايفين أديش حلوة!!

أحيانــاً تخجل من ردة فعلها القويـة وانبهارها، لكنها لم تـر ان ذلك يسيء إلى شخصيتهـا. حضورها محبوب. وهي تعلم وتحـب ذلك، دائمة الابتسام كمّا يقولون، وهذا شـيء لا تستنكره.



تغمض عينيهـا وتبتسم حين تحضر فـي ذهنها ابتسامة السيّـد عباس، وتقر في نفسهـا بان للبسمـة تأثيرا واضحا حين لا تكـون الشفة وحدها هي التي تبتسم، ومصداق ذلك هـي بسمـة السيّد عباس. فهي أكثـر الابتسامـات وضوحاً

وتأثيراً، بسمته تختلف تماماً عن كل بسمة شاهدتها. واخذت تقارن في ذهنها، لقد شاهدت الكثير من ابتسامات المودة، أو ابتسامـات الترحيـب، امتنــان، أو تعاطف. مـا كانت تراه علـى وجه أمها وأبيها وجدهـا وإخوتها كانت ابتسامات أكثر عمقـاً ووضوحاً، لكـن الابتسامة التي تدهشهـا هي ابتسامة السيّـد عباس. فهي أشدّ وضوحاً وأكثر تأثيراً، كأن لها كياناً مستقـلاً، لا حـدّ لانتشاره وقدرتـه على التأثيـر، لا تستطيع ازاحـة نظرها عن ابتسامته، فهي تفعل فعل الضوء في مكان معتم، كأن شيئاً فريد الجمال ينبثق.

كانـت سهام تتعمـد التدقيق لتجيب عن سـؤال، هل تؤثر ابتسامتـه في سواهـا كما تؤثر فيها؟ تعمدت مـراراً أنّ ترى أثـر ابتسامتـه في سواهـا، وكانت ترى ذلـك بوضوح، حين يدخل السيّد وبسمته، أو حين تخرج بين حديثه وصمته، بين شفتيه وزاوية العين، تكون قادرة هي على امتصاص أيّ حالة فـي مواجهتها، غماً كانت أو حزنـاً أو أيّ شيء، بسمة قادرة علـى ان تمحو وتكتب انعكاسهـا، يحملها السيّد كما الزهور، يقدمهـا إلى كل من يلتقيه من أهل أو ضيوف، إنّ بها سحراً، فهـي لا تغـادر لحظتها، ان مـرت عليك تحملهـا معك وانت تغادر.



السيـارات تتقدم ببـطء، تنظر سهام إليـه، أهو ساهم، أم غارق في التسبيح؟ فهـو يتكئ على مسند المقعد، تبتسم سهام بود وتعاود النظر إلى النافذة.

بذرة الخوف

كل شــيء كان مختلفاً على الحدود، حتــى البناء ليس كما تعرف وكما تعهد من صور في ذهنها، شكل البناء وهندسته، وحتى الحجارة المعتمدة فيه، حجارة مفخورة صفراء، صلبة وصغيــرة الحجم جداً. الجــدران ضخمــة لا تتناسب وحجم الحجارة الصفراء. الحجارة الصغيرة تجعل الجدران كثيرة الخطوط، خطــوط متوازية كثيفة. بعض الجدران قدّ اكتست ببلاط أبيض، وكتب عليها ببلاط أزرق داكن بعض الشعارات:

- «أمّة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة».

وشعــارات أخرى سهــام تقرأها لأول مــرة، هي لا تعرف معناهــا، وإلى مّا ترمي. يمر كل ذلك وشعــور الرهبة يتوالد في داخلها، وينمو باضطراد. شعور لمّ تعرفه سهام من قبل، لكنــه مع الوقت بدا واضحاً لا يمكن تجاهله. ومشاعر اخرى تطل برأسها، هي مزيج من الخوف والتردد، والرغبة الملحة فــي تجاوز كل هذا. تريد فقــط أنّ ينتهي كل هذا، وأنّ ينتهي بأســرع وقت، كمــن دخل إلى مكان لم يقصــد الدخول إليه، مكان لا يعنيه ولا يشبهه.



توقفت السيّارة أمام أول حاجز ورأت الجنود، بدأ الخوف يصبــح أكثــر المشاعــر وضوحاً، إنّهــا خائفة. تلــك الوجوه القاتمة المقطبة الجبين، وتلــك الأوامر واللهجة الصارمة، لغــة حاسمــة متعالية، ونظــرات ارتياب وشــك مجبول بعدم رضا، تشعّ منها قسوة واضحة. وهي الصبية ما اعتادت على مثــل تلك النظرات، كانت بالنسبة لها جديدة تماماً، جديدة وغيــر مألوفــة. رفضتها جوارحها بقوة، كشــيء غير إنساني وغيــر مقبول، دخيــل وغير مألــوف، كل هــذا، جعل الخوف ينمــو، وبسرعــة فائقة. لم يعد الخوف يطــل برأسه وحسب، بــل بدا وكأنّه احتل كل وجدانها واشرأب متسلقاً، ومع الوقت صــار يلتف على رئتيها. شعرت بأنفاسها تضيق، وبحنجرتها تتصلب، والجفاف يزحف إلى فمها.

الحقائب تُجمع على الارض، والسيّد والسائق ينقلانها، كل مــا في السيارة أصبح خارجهــا، الحقائب وكل الأغراض تنقــل. والخوف نهــرٌ تغذيه روافــد شتى، النهــر يكبر. وهي تنظــر إليه وإليهم، هم لا يحبونه. هذا واضح في ملامحهم. الخــوف يتجه إليه، إلى عريسها، ثمّ تجمّع الخوف مع الوقت عنده وحده. وهو رأى الخوف في عينيها، فتدخل ليخفف من اثره الذي بدا واضحا في عينيها.



- مّا تخافي... ما في شي بخوف

- لوين رايح؟



- اخد الشنت عالتفتيش....

- بروح معك

- لا.. ابقي انت ومنيرة حد السيارة

حاول بابتسامته المطمئنة هدم جدار الخوف

- مّا تخافي.. مش راح طول.

مّـا قاله لم يكن يكفـي. دخل هو والحقائـب خلف الباب الزجاجي الكبير واختفى، حاولت أنّ تتابعه بنظراتها، ولكنّه اختفى خلف الجدار. وكبر ذلـك الخوف، أصبح قلقاً نابضاً حياً يستطيع التجريح، يستطيع العبث وزرع الفوضى داخلها. وبعـد غيابه بقليل لـم تستطع الجلوس، وقفـت، إنّها فوضى المشاعـر الغريبـة الجديـدة، الوقـوف لم يكفيهـا، فمشت بقلقها خطوات..

- لوين رايحه

- طولو.. طولو كتير... امتى بخلصو

- مش عارفه... بس قعدي لوين رايحة

تـدور في دائرة شعاعها خطـوات قصيرة، لم تفعل هذه الخطـوات شيئاً. تجلس ثـم تقوم، كل هــذا التغيير لم يفعل شيئـاً، وفوضـى الحواسـ عارمة لا تهـدأ. تنظر إلـى الباب المغلـق... هو خلـف الباب... جزء منها غـاب بغيابه، أو هو الجزء الأكبر، الجزء الذي كانت تنتظم حوله الأشياء، وحين اختفى حلت فوضى لا يمكن تنظيمها. لقد شعرت بانّ الجهد



النفسي أكبر منها، ومن أعوامها الخمسة عشر. أحست بالوهن في قدميها حين طال غيابه، بدأ البرد يتسرب إلى أوصالها دون توقف، التصقت بمنيرة وتمسكت بيدها، وهي ما زالت تنظر الباب:

- طولو مش هيك؟

- اي طولو

كان الوقت طويلاً، أطول من أي وقت عرفته سهام، وذلك الخوف كان غريباً في شدته، غريباً في أثره عليها. شيء لم تشعر بمثل حجمه من قبل، ربما هي غلاظة وجوه المفتشين وقسوة ملامحهم، وهذا الذي كانت تراه في عيونهم من عدم الترحيب، ربما هو المكان الغريب البعيد.

لم تكن تدري ما الذي رفع منسوب الخوف لهذه الدرجة الصعبة في غياب السيّد. إن غيابه في مثل هذا المكان والزمان، مختلف. غاب عنها طويلاً في مرات سابقة. في الشهرين السابقين كان قريباً منها أغلب الوقت، اعتادت على حضوره ولطالما اعتبرته حضوراً مؤنساً. ولكنه كان يغيب لبعض شأنه، وحين يغيب كانت تفتقده وتتمنى أن يعود سريعاً، ولكن ابتعاده على الحدود كان له طعم مختلف، لا يقاس الابتعاد بالزمان أو المكان. لقد ابتعد عنها سابقاً زمناً أطول وأمتار أكثر، ولم تشعر بما تشعر به على الحدود .



الابتعاد يحسب بالقلق، وماهية الفراغ المتروك، لا

بالساعـات والأمتار، لكـم كان غيابه على الحـدود واضحاً، حـاداً وموجعـاً و.. وبـلا أمـان، والخـوف عليه جعلـه أكثر وضوحاً ووجعاً.

حين عاد السيّد بعد انتهاء التفتيش، شعرت أنها هي التي عـادت من مـكان بعيد مجهول وموحشـ. كل خطوة له كانت كأنهـا خطـوة لها باتجاه الخـروج من ذلك المـكان المظلم المشبّـع بالقلق، الخالي من الأمان. ما ان شاهدت ابتسامته تلـك، حتى شعرت بأنها استعادت استقرارها النفسي. كانت تلك تجربة جديدة تماماً.

لـم تشعر سهـام بالاستقـرار الاّ بعـد مغـادرة الحدود، وابتعـاد السيارة في الصحراء، وانغماسها في الليل الذي لم يدم بعد ذلك الا قليلا

- صار وقت الصلاة

الفجـر والصلاة بعد الحدود، تـركا أثراً جميلا في نفس سهـام. المكان الهـادئ الـذي كان خالياً في ذلـك المقهى الصغيـر، وصاحبـه المتوسط العمر بدا طيبـاً منذ اللحظة الأولى، في ابتسامته وحسن استقباله. عامل السيّد باحترام بالـغ، كأنه يتعمـد أن يكون نقيض أولئـك الرجال. لقد ظهر ذلك بوضوح في حسن ضيافته، منحهم مكاناً منعزلاً للوضوء والصلاة، وهو يردد باستمرار:





- هلا بالسيّد ..هلا بيكم هلا والله

ذكرها قوله بالجملة المكتوبة على الحدود:

- أهلاً.. وسهلاً بكم

كلمة لفظها رجال الحدود على الجدار، كشيء بلا معنى. وهنـا على شفـاه الرجـل الطيب عـاد لها معناهـا، لتصبح «حللتم أهلاً وسهلاً».

عـادت السيارة تلتهـم الطريق، عاد الهـدوء، بعد حديث قصيـر، فالنوم مازال في العيون، ما اسـرع ما استغل النوم فتـرة الصمت ليحـوم. نظرت إلى منيرة التـي استسلمت له متمسكةً بكل دثارها.

التفتـت سهام إلـى النافذة، لقـد بدأت الأرض تستعيد ألوانهـا، الأصفـر يستيقظ على ظهـر الأرض، يشـرب نوراً باهتـاً تعكسه سماء ما زالت زرقتها داكنة، كأنّ الفجر يخرج بكسل من منّزله.

وبـدأ السـلام يتسـرب إلى نفسهـا، وكأن ذلـك الخوف المختلف والحاد قد غار عميقا، فهو لم يغادر تماماً، ظل في مـكان ما موجوداً، بشكل أو بأخر، أو كأنه قبل أن يغادر ترك بذرة، ترك في مكانه شيئاً، كجرح يترك ندباً بعد شفائه.



صحراء زينب

تنظــر سهام مجددا إلى الصحــراء، لكم هي غريبة هذه الارضــ، غريبــة في كل شيء. شكل واحــد لا يتغير، هذه هي طريــق العراق، صحــراء على امتداد الافق. لكــم أنتِ بعيدة أيتهــا المدن المقدسة؟! تتسارع الرمــال عائدة إلى الخلف، تمر بيــن الحيــن والحين كتلٌ صغيــرة من الاشــواك، جافة وخضرتهــا قاتمة. لكم هــي موحشة وطويلة هــذه الطريق؟! السيــارة تلتهم المسافــة التهاما دون أن يبــدو على الطريق نقص، كيف كانت تسير القوافل، جمال بطيئة الحركة؟.

تتداعــى إلــى الذهن صور حزينة، على مثــل هذا الطريق سارت قافلــة الحسين، تحدوها الريــاح والمصير المجهول، ثــم تتقاطر صور أشــد حزنا لمولاتها زينــب والسبايا، ارامل وثكالــى وايتام، اسرى يقودهم اعداؤهم إلى مصير مجهول. صــور التمعت بذهنهــا وحضرت بشــدة. انها هنــا، هذه هي الصحــراء الحزينه ذاتها، على هــذا الدرب سارت زينب في رحلــة السبي المريرة، أليست تلــك طريق الشام؟ من الكوفة إلى الشام، وسهام تسلك ذات الطريق، من الشام إلى الكوفة.



تحدق سهام في الصحراء، ويغشى الصحراء ضباب من دموعهـا، وصورة تلـك القافلة تزداد وضوحـا وحزنا، كأنها تراها كما تُروى في مجالس العزاء.

- «أيتها الصحـراء كيف احتملـت آلام زينب والسبايا، كـم من الايام مرت والسبايا علـى ظهرك؟ يئنّون من وجـع المصـاب! أيام طويلة وليالـي لا تنتهي، يا رباه، كيـف كانـوا وبأية حـال؟! فقد الرجال لـم يكن يكفي حتى يضاف اليه ذل السبي وآلامه.. آه يا مولاتي..»

تشيح سهام بوجهها عن الصحراء، تبكي بصمت، تمسح دمعها، لا تريد للنيام أن يستقضوا..

- «كيف جـرى عليك كل ذلك يا أخـت الحسين؟ وكيف احتملـت يـا ابنـة أميـر المؤمنيـن والزهـراء؟ كيف احتملت؟.

تمسح دموعها وتردد:

- «مصائب أمها وصبر أبيها»

تلـك الصـور وكلمات مجالـس العزاء تتداعـى، وتقتحم الصمـت، صمت الصحراء وصمت النائمين يحتويها، وحده صوت السيارة وهديرها الخافت، يجرح الصمت وهي تجوب هذه الصحراء.



- «ان للصحراء صمتاً حزيناً»

تغمض عينها سهـام، وتتداعـى إلى ذهنها بـلا انتظام

مجالس لعزاء، والداها والاهل، ما ترك اهلها مجالس العزاء، بل كان منزلهم هو مركز اقامة تلك الشعائر، السواد على الاجساد، والرايات السود تحتل الشوارع، واحتشاد الناس في تلك الاماكن. منزلهم كان مركز الاستقطاب، والحزن يلف الدنيا في عاشوراء وسهام بطبعها المشارك رسمت صور ذلك الالم، وحفظت تلك السيرة عن ظهر قلب.

ذكرى المجالس أخذت حيزا من شريط العمر، كمحطات واضحة المعالم، ينشغل بها الجميع، وأمها على وجه الخصوص، التعب في خدمة المجالس الحسينية مكسب عظيم، فخر وعطاء.

أشد المحطات وضوحا هي تلك الرؤيا، حُلمها، حيث رأت السيّدة الزهراء، ونساء أخريات يحيط بهن السواد، يحضرن مجلس العزاء المقام في منزلهم. كان الحلم واضحا على غير عادته، لم تكن احلامها بهذا الوضوح، استيقظت وهي تتذكر تفاصيل، وكلمات، واكثرها وضوحا هو كلامٌ من الزهراء، يحمل تشجيعا وشكرا لها، لها هي ولأبويها، راته بغير ما كانت ترى، كان مختلفا.

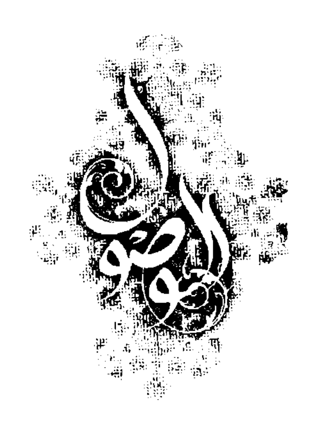


رأته بعد تعب وجهد كبير، منها ومن العائلة كلها، حين سقطت المدفأة في زحام الخارجين من مجلس العزاء المقام في منزلهم، وامتلأ البيت، والاثاث بالرماد الاسود. العصي على التنظيف، لقد مضت ساعات النهار واجزاء من الليل في التنظيف، لقد تعبت هي وأهلها كثيرا في ذلك

اليــوم، وفي الذهــن دائما مــا يدفعها للأنس بذلــك التعب. فهو على حب الزهــراء، تلك المقدسة التي لا يضاهيها احد فــي ذهن سهام الصغيرة ، نامت مــن تعب تلك الليلة، ورأت سيدتهــا العظيمة فــي منامها، استيقظت وهــي ترتجف حباً ورهبة، لقد تكلمت مع مولاتها الزهراء.

لقد ترك ذلك أثرا عميقا في جوارحها لايام طوال، وحين روت الحلــم لأهلها بكت الام، واستبشــر الاب خيرا، وعاهد نفســه أن لا يتوانــى وتحت كل الظروف عــن اقامة المجالس الحسينية على أحسن الوجوه، صورة الزهراء في تلك الرؤيا مطبوعة في ذهنها ما تزال، وكأنها في حضرة الوعي، تجاور ذلــك الحب الذي نما فــي القلب الصغير، سهــام تغفو وهي تحتضــن تلك الصــوّر، لا تريدها أن تغــادر، فهي قادرة على بعث السلام في روحها.





الفصل الثاني

معالم
في البناء المتين

الدخول إلى الجديد

حيـن فتحت عينهـا كان كل شـيء قد تبـدل حولها، كأن ممحـاة محت الصحراء، واستبدلت الاصفر باخضر جميل، كان صف النخيل يتقاطر على الجانبين، كوفود من الأميرات مختلفة الاعمار مزهوّة بجدائل خضر طويلة.

- صحّ النوم

صـوت السيّـد وعيناه الطافحتيـن بالمودة، وحنـان أبوة فائض ثم صوت منيرة.

- صحّ النوم يا كسلانه

- انتي كسلانه.. طول الليل كنت نايمة ومش حاسه بشي

البيـوت وطرازها الغريـب، العباءات الكثيـرة، والرجال بأزيائهم الطويلة

- لقد تركنـا الكوفة، ونحن على مشارف النجف، شوفو مقبـرة وادي السـلام... أضخـم مقبـرة علـى وجه الارض.

القبور على طـول الطريق، ممتدة إلى آخـر الافق، كأنها



بحـــر من الشواهد، ذات اللون الطينـــي، المختلفة الاحجام. لم تشعر سهام بخوف المقابر أو حزنها، وكأن ابتسامة كانت تحـــوم فوق تلك المقابـــر، وكأن الشواهد العالية ايدٍ ممدودة إلـــى السماء، تستقطـــب الخير والمطر، ذلـــك الاثر الجميل الذي تتركـــه مقبرة وادي السلام، يختلف عـــن اثر المقابر، ربما هو كلام السيّد عـــن النساء والرجال الذين يحلمون أن يدفنـــوا هنا في وادي السلام، لتلك الخصوصية التي منحها الله للراقدين فيها، اذ يُرفع العذاب عن ساكني تلك المقابر اكرامـــا لأميـــر المؤمنيـــن، ولا وحشـــة فـــي قبر يجـــاور امام المتقين.

تنعطـــف السيارة إلـــى تلك الشوارع العجيبـــة، حيث تمتد المدينـــة في نظـــام فريد، لم تـــرَ مثله سهام مـــن قبل، وكأن المنـــازل علـــب متشابهـــة صفّت فـــي انتظام فريـــد، قطعتها الشوارع طولاً وعرضاً في مساحات محددة، اذا نظرت يمينا تمتد الشوارع مستقيمة بلا انحراف، في كل الاتجاهات، من الأمام وعلى الشمال حتى نهاية الافق.

ضحك السيّد طويلا حين سألته سهام كيف يعرف سكان هذه المدينة بيوتهم دون خطأ فكل المنازل متشابهة؟!

- بدك تعلمي البيت بشي علامة



تسير السيارة في تلك الشـــوارع المرسومة بدقة، وسهام صامتة مذهولة أمام هذا المنظر الفريد.

- هذه هي المدرسة اللبنانية

وأشار السيّد إلى باب ضخم، حجمه اكبر من حجم الابواب الملاصقة، وقد صُنعت على دفتيه أرزة ضخمة من حديد مدهون بالاخضر، تُشعرك بالانتماء اليها وسط هذا الجو الغريب. ثم تتقاطر أبواب المنازل وجدرانها المرتفعة. وشاهدت سهام احدى الامهات تعبر على جانب الطريق، تلبس العباءة وتحمل طفلها الغافي على كتفيها، وخلفها طفل يركض مرتدياً ذلك اللباس الغريب، لباس كانت تظن سهام أن العلماء وحدهم يلبسونه تحت العباءة.

- هذه الدشداشة .. اللباس الشعبي هنا

ومع كلام السيّد تمر السيارة أمام دكان وقفت عليه أكثر من «دشداشة»، لقد أقرّت في سرها أن هذا المكان غريب في كل شيء، في بنائه و الناس، وحتى الدكاكين.

كانت ما تزال سهام مذهولة حين توقفت السيارة أمام احد المنازل الذي يشبه كل المنازل الباقية، ترجّل السيّد وما زالت سهام في ذهولها:

- يا الله .. وصلنا



ترجّل الجميع، السيّد والسائق يضعان الامتعة على الرصيف أمام أحد تلك الابواب، سهام وكذلك منيرة ذاهلتان تستطلعان المكان. نظرت إلى السيّد، وكأنها غير مدركة ما ترى:

- هذا بيتنا؟!

ابتسم السيّد وهو يهزّ برأسه ايجابا. ما لبث أن فُتح الباب، وخرج منه شيخ ضم السيّد إلى صدره، قُبَل وابتسامات، وكثير من الترحيب، وتعاون الجميع في ادخال الحقائب، الباب يفضي إلى دهليز طويل، وعلى أحد جانبيه فتح الشيخ بابا فبدت غرفة واسعة كثيرة النور.

- اتركوا الاغراض هنا في البراني

الغرفة واسعة، وبنظام واحد غريب، فرش طويلة تلتصق بالجدار، وكثير من الوسائد، وحصير كبير يتوسط الغرفة التي تفضي إلى غرفة أخرى تحتوي نفس النظام المفروش ومكتبة كبيرة.

ذهبوا خلف الشيخ الذي بدا سعيدا بقدومهم، يمشي ويتساءل عن الاحوال، يأخذهم في جولة تعريف بالمنزل:

- هنا المطبخ.. وهنا الدخلاني

- .. ...

- وهنا ارض الدار



أرض الدار كانت أفضل ما في المكان بجدرانها العالية جداً، المكشوفة على السماء، وشمسها التي تلمع على أكثر من نصف الارض، وشجرتها الوحيدة الكبيرة، ثم بركة الماء في الزاوية، وصنبورها الذي يصدر صوتاً خفيفا متباعد النغمات، من نقط تتفلت منه لتسقط على مساحة

ممتلئة بالمـــاء، وسهام دون ان يغادرها الذهول تسمع الشيخ يشرح:

- هذا الدرج يوصّل للسطح
- ...
- وتحت الدرج الحمام الثاني

حمامــان، حمــام قريــب مــن المطبــخ، وحمــام للرجال قريب مــن «البراني»، البيت قسمــان اذا، «البراني» للرجال و«الدخلاني» للنساء، كل شيء هنا مختلف وله نظامه الخاص، وسهــام تتســاءل: كيف ستعتــاد كل هذا الغريــب المختلف. المطبــخ واســع ونظيف، تحــاول أن تتحســس مشاعرها فلا تجد في جوفها سوى الصمــت والترقب، المجبول بالذهول، يتــردد سؤال يحاول الثبات: هل هذا هو بيتها؟! كيف ستكون أيامهــا القادمــة؟ وكأن حاجزاً خلف الاسئلــة يمنع الاجابة، حاجز مبني من حجارة المجهول الصلبة.



المنزل والأمير

سهــام كعادتها تنظـر مليّاً، تحاول جاهــدة تبيان مكانها الجديــد، واعــادة ترتيبــه، وان اقتضــى الامر بنــاء جديداً تستطيــع فيــه أن تكون هي نفسها، تتلفــت تنظر ثم تتحرك، ما ان غادرها تعب السفر، حتى الحَت عليها مقولة تتردد في جوارحها ملحاحة:

- «هذا منزلك يا سهام... منزلك»

بلمساتهــا وبنشــاط دؤوب، وبمساعــدة منيــرة، أعــادت تشكيــل كل شــيء متحــرك، رتبــت الدخلاني حيــث وضعت لمساتهــا على كل شــيء فيه، ثم البراني بمــا يليق بالرجال، والمكتبــة بــكل تفاصيلهــا، نظمتها بعد ان تابعــت العناوين، ورتبــت بجانبها مكانا مريحا للقــراءة، وتدخلت بكل صغيرة وكبيــرة في المنــزل لتعيد رسمهــا بما يشبهها هــي، وكأنها بذلك تحاول ان تجعل المــكان ينتمي اليها، ان تمسح غربته وتكســر هذا الحاجز الذي بدا واضحا عند دخولها اول مرة، مستغلة غياب السيّد طوال النهار ليرتب شؤونه، لم تستريحا حتــى انجزتاه كاملا وكمــا تريد، جلسا وقــد هدهما التعب،



تنظران إلى ما انجزتاه بسعادة.

- هيك صار كتير معقول.
- اي بس مش هيك.. انت ماخليتي شي عشي
- بس كيف صار

تهز راسها منيرة اعجابا، وتعترف لها:

- انـت ست بيـت عن جد.. بكرا بسـ يصير عندي بيت غصب عنك تجي تساوي معي.

حين عاد السيّد، وقف مدهوشاً بجمال ما يرى من تغيير، كأن يـداً ساحرة لمسـت كل شيء، وهي تمشـي خلفه تتابعه وتنظـر إلى وجهـه، وهو يجـول فـي المنـزل، وعيناها على ملامحـه، سعيدة وهي تـراه يظهر انبهاره بتلـك اللمسات، سعيدة بذلك الاثر، كأنها ترى أجمل ما فيها بمرآة عينيه.

انشغلـت بعـد ذلك باستقبـال المهنّئين، لم تبـقَ لبنانية الا وجاءت، تلك عـادة جميلة اعتمدها المجتمع اللبناني في النجـف، في الايـام الأولى أصبحت تعـرف الجميع، وتعرف الكثير عن هذا المكان وعاداته، كان من المحال دمجهن في المجتمع العراقي، لاختلافات كبرى في كل شيء، في العادات والتقاليـد وأسلوب الحيـاة. فلم تجد النسـاء اللبنانيات في المجتمـع العراقـي ما يشجعهـن للاندماج فيـه، فتكتّلن في مجتمـع خاص، وسهام تستمع وتحـاول التحليل، وهي تبحث عن مكانها في كل هذا.



وفــي المكتبــة، شعــرت ان هنــاك ارتباطــاً بينهــا وبين المكتبــة، تستمتع في الجلوس اليهــا، تتصفح الكتب، الكتب كثيرة جدا، ترتبط صورة الكتب بصورة السيّد ارتباطا وثيقا، لا تجـد صورة للسيد في ذهنهـا الا والكتاب معه، يدخل وهو يحمله، ويخرج وهو يحملـه، والجلسات الطويلة في المكتبة، حولـه وبين يديه، هي تعرف الكتب التي يدرس ويدرّس فيها، وقد نظمتها حسب الحاجـة اعتمادا على موضوعاتها، تقلب صفحاتها:

- اف كتير صعبي..
- .. ...
- خيّك عقلو كبير.. كيف يفهم هذا كلو؟؟
- هذه شغلتو.. انت يشو عرفك.. انت للطبخ وللبيت..

وباستنكار شديد وعبوس قالت سهام:

- لا مش بس للطبخ والبيت

هي تحب هذه الكتب، ووجدت فيها ما يقرأ، تبحث في كتب المطالعـة عمـا يستهويها. هذا كتاب عـن الإمام علي عليه السلام، حملته على الفـور وجلست تقرأ. حدثها السيّد كثيرا عن امير المؤمنيـن. حين عـاد السيّد كان الكتاب ما يـزال بين يديها، بادرته بالقول فور وصوله:



- امتى بدنا نروح عا مقام امير المؤمنين
- الجمعة اذا الله أراد

- بكره؟؟
- انشالله
- الله

واحتواها فرح عارم، غدا ستزوره.

تزاحمت مشاعرها وارتبكت، بين الرهبة والحب لم تجد الاستقــرار، وكأنهــا أكبر خطوة تخطوهــا، فللأمير في قلب سهــام قداســة لا مثيل لها. مــن قبل كانت كذلــك، وتعززت بأحاديث السيّد، نمت مع حديثه عن الإمام نمواً استولى على قلبهــا الصغير. أبو الحســن، لا انسان مثل أبي الحسن أبداً. صور تزدحم في ذهن سهام، عن عظيم لا يوصف، قمة عالية فــي كل شــيء، شجاعة وقوة لا قبل لأحد بهــا، وإذا جاء ذكر الله رق وبكى في عبادة فريدة، ينقطع فيها عن الدنيا ويسمو حتى لا يبقى منه على الارض شيء، حين اخترق سهم صعب قدمــه انتظروه ليصلي كــي يستطيعوا نزعه. وهــو في العلم باب يفضــي إلى ألف باب. هذا القليل الــذي تعرفه يذهلها. أبو الحسن، كيف ستذهب لزيارة مرقده، هل ستلامس رخام الضريــح وذهبه؟ كيف بها وهــي قريبة من جسده الشريف؟ تزاحمت المشاعر والافكار.



- «سيــدي.. يا ابــا الحسن.. كيف بي وانــا ازورك لأول مــرة.. ؟ واعلم يا سيــدي.. اعلم كم انــا صغيرة بين يديــك.. أيحق لــي الاقتراب من ضريحــك..؟ اعرف

عطفك على من هو مثلـي.. أنها منحة أكبر مني ومن مشاعري.. حنانيك سيدي..»

نامـت تلك الليلة خافقة القلب تتقلـب بين مشاعر الرهبة والحب، وفي الصباح الباكر اغتسلت غسل الزيارة، لم تستطع منـع قدميها من الارتجاف وهـي تحضر في صحنه الشريف، حتى اذا دخلت إلى المرقد غابت، ولم يعد هناك سوى الشبك الذي تتكسر عليه الانوار، بكت كثيرا وهي تتمسك بتلك الكرات الصقلية، لقد انتقلـت إلى مكان آخر، مكان لم تصله سابقا، راكعة أمـام ضريح مولاها، وكأنها في غير الدنيا. ثم داهمها شعور بالراحة، راحة ذات لـون مختلف، مشبعة بالانس، انس لا تـدري من أيّ بـاب يدخل إلى جوارحها فتغـرق فيه شاعرة باكتفاء عجيب. حتى قراءة القران في حضرته امر مختلف.

وفور خروجها قالت للسيد:

- متى نزوره مرة ثانية
- بس بدك.. اي يوم جمعة انا حاضر
- اي.. اتركني عندو وطول اد مافيك

وحين وصلت إلى المنزل:

- حدثني يا سيد عن امير المؤمنين.



في كل الزيارات التالية، كانت تشعر أنها تغيب في حضرة مولاهـا، وحين تخرج مـن حضرته تخـرج مغسولة، خفيفة، قوية وقادرة على احتمال كل مصائب الدنيا..

الملامح الأولى

جلسات السيّد كانت هي الاحبّ عندها، لماذا هو حلو الحديث لهذه الدرجة، كأنه ساحر، فهي تشرب كلماته كالأرض العطشى، هل هو أسلوبه الأسرّ أم هذا الكم الكبير جدا من المعلومات لديه؟ كل ما كانت تعرفه سهام أنه كلما صمت استدرجته للحديث مرة أخرى، تستمتع في كل تلك الجلسات القصيرة، تحاول زيادتها في العدد والطول، وهو يحاول الاستجابة رغم انشغاله، وأحبّ هذا فيها، أسئلتها الكثيرة، حبها للمعرفة، عطشها الدائم كأنها أرض لا ترتوي. صار يطيل ما امكنه الجلوس، اقتطع لذلك من وقته ما استطاع اقتطاعا. وهي تستغل الجلسات، تضع يديها تحت ذقنها ولا تعود تتحرك وكأنها بكل جوارحها آذان صاغية.



تطالبه بالمزيد، وقت السيّد في غاية الدقة والتنظيم، يخرج بعد صلاة الصبح إلى درسه، ويعود في الضحى لوقت قصير، يأكل ما تيسر، يجالس فيه سهام ومنيرة ما استطاع أن يقطع لهما من وقته المحسوب بدقة، ليذهب بعد ذلك، لإعطاء الدروس لطلابه في المدرسة اللبنانية القريبة من المنزل.

يعود بعد صلاة الظهر للغداء، يرتاح قليلا ويغفو بعض الوقت في الغرفة الداخلية، المطلة على أرض الدار. حتى اذا استفاق يجالسهما قليلاً مع فنجان شاي، وبعض النوم في عينيه، فيبدو أكثر جمالا من أي وقت، في ملامحه الهادئة وحركته البطيئة التي لا تراها سهام الا في هذا الوقت عند اول استيقاظه من النوم. تنظر اليه سهام، انه رجل يستطيع ملامسة شغاف القلب في كل أحواله. ولا يلبث أن يدب النشاط فيه سريعاً، فيخرج للدرس والمباحثة ومهام أخرى تتزاحم، وحين يعود بعد صلاة المغرب، وبعد العشاء الخفيف تأتي مراجعة الدروس، يخرج إلى منازل زملائه أو يأتون اليه. تنتظره سهام ما استطاعت، ولكنها في كثير من الاحيان كانت تغفو من التعب.

أيامها الأولى كانت صعبة وطويلة، تساعدها منيرة في أعمال المنزل، وسهام سريعة كثيرة الحركة، سرعان ما ينتهي كل شيء على أفضل ما يكون، ثم ماذا؟! ماذا بعد ذلك؟! هذا الشوق إلى الاهل وقريتها، رغم الحركة الدؤوب وامتلاء النهار، وتلك المساحات الشاسعة المملوءة استكشافا. لكن الوقت اكبر من ان يمتلئ. وهذه الرفوف المملوءة بالمؤنة، كلما رأتها أو لامستها استدعت ذكرياتها والاهل، لكم هي مشتاقة! تتداعى صور الام ولمستها الحارة على تلك المؤنة. حمّلتها أمها كل شيء، كل المؤنة الممكنة، الكشك المربيات تيناً وكرزاً، ودوائر اللبن السابح بالزيت.



والصور تتزاحـم، الاورما... الاب والاخ، أخواتها والجيران، ودروب القرى، وتغرق العين في دمعها..

- «يـا أنت يا قريتي.. يـا أهلي، لكم هو صعب فراقكم.. يا ساحة الدار، يا لهو الطفولة.. أيها الركض واللهاث الجميل.. ايتها البساتين.. يا أرجوحتي».

صنعـت أرجوحة هنا فـي أرض الدار، فكّـت هي ومنيرة حبل الغسيل من على سطح المنـزل:

- نلعب شوي ونرجعو للسطح

الفـرح يستيقـظ، تنشغلان في فك الحبـل والركض عبر الدرجـات، وبين النافذة وجـذع الشجرة ربطتـا الحبل، ثم جاءتـا بوسادة وضعتاها على الحبل، الحبل ممدود أكثر مما ينبغي، ليت الشجرة كانت أقرب للشباك

- لا يهم انها أرجوحة

ركبـت سهـام على جنـح طفولتهـا، أشـواط المرجوحة قصيـرة، ولا يـكاد الجلوس عليهـا يستقر، ولكنهـا جميلة، وحين ركبت منيرة

- ادفعي يا سهام أكثر



أشواط المرجوحة قصيرة والحبل أكثر توترا مما ينبغي

- ادفعي! .. ادفعي

انقطـع الحبـل، اصطدمت منيـرة بجـدار الغرفة تحت الشبـاك، صرختهـا وصـوت الاصطـدام، ثـم الضحـكات،

استفـاق السيّد مـن قيلولته وخرج من الغرفـة ملتاعاً، سمع الضحكات، فضحك، اعتذرت سهام وقالت آسفة:

- انقطع حبل الغسيل

- بكـرا منجيـب حبـل غسيـل غيـرو وانـا حاسويلكـن مرجوحه

في فرح صرختا معا...

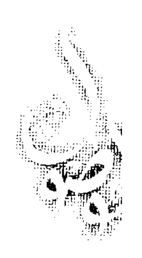
- عن جد...

فـي اليوم التالي صنع السيّد ارجوحـة تكاد تكون مثالية، فهي أمتـن وأكثر اتقانا، ارجوحة شوطهـا طويل. ثم اشترى لهم كـرة، وأضحى للعب وقت، ويتعمـد السيّد المشاركة في بعض منه، حتى أن جارتهم زوجة السيّد الصديق سألت عن تلك الضحكات فقالت لها:

- كان عم يرشّ علينا السيّد ماء من البركة

- السيّد!؟

استغربـت الجـارة مدهوشـة، السيّد بكل هيبتـه، صورة صعبـة التصديـق، السيّـد يراعـي ويمـد اليهمـا حبلا من الطفولة ويشارك فيه.



بين الزائرات والدروس

الوقت الباقي ظل طويلا فارغاً.. وحده حضور السيّد قادر على ملئه، بأحاديثه وقصصه، وتتكشف صحراء روحها عن العطش إلى ما يقول، كل ما يقول، عن العلاقة بالرب الرحيم، وسيرة أهل البيت، والقصص الفريدة المؤثرة، الوصايا والتعاليم، و.. و..

- «من أين جئت بكل هذا يا ابن عمي؟! وكيف يكون لك هذا السحر؟! كيف تعرف كل هذا ؟! ومن أين لك القدرة على نقله بكل هذا الوضوح.. وكيف يكون لك كل هذا التأثير؟! وكأن كلامك يدخل إلى روحي دون المرور بمسامعي.

صحراؤها في عطش، وبها نهم إلى تلك المعرفة، والسيّد لا يبخل، ويأنس بذلك منها، بقدرتها على الاستيعاب والتأثر وبطلبها للمزيد.



ترى نفسها تتغير مع كل حديث، تقرأ من الكتب الموجودة في مكتبة المنزل، وتسأل السيّد، وما أكثر الاسئلة! صحراؤها

تحضر وعطشها يزداد، ما انفكت تقارن بين حديثه وبين بعض ما كان يرد في احاديث النساء اللواتي ما كففن عن زيارتها كل صباح، حديث ممل لم تجد فيه متعة ولا قيمة، وهي تقارن آسفة بين حديث عن الملابس وحديث عن أمير المؤمنين وزهرائه ذات النور والخلق الرفيع. بين الغيبة، وبين العشق الذي يقطر من كلماته عن المطلق وعن جميل صنعه.

تحاول مع النساء أن تغير نوع الحديث، ان تنقله إلى مكان آخر، لكنها لا تجد استجابة، الا مجاملة هنا وهزّ رؤوس هناك، النساء الزائرات طيبات عطوفات، لكن اغلبهن لا يستمتعن بهذا الحديث، وكأن هذا الحديث يثير الكثير من الاسئلة، اسئلة لا يردن اثارتها، أو ان اجوبتها تستدعي الكثير من التغيير، تفتح امامهن ابواباً لا يردن فتحها. وهي تستغرب كيف ان بعضهن لا يفتحن الباب، كيف يرضين الجلوس في العتمة؟ كيف؟!.. الا يسألن عن الجدوى، عن مبررات حقيقية لوجودهن؟! الا يردن الافضل؟! الا يردن استثمار ما لديهن من امكانات؟! وهذا الوقت الثمين الذي هو أغلى ما لديهن، لكم هو واسع شاسع؟! الا يفكرن باستثماره؟ الا تعتمل في ذهنهن تلك الاسئلة التي لا تكف عن التخاطر في ذهنها باستمرار لجوج؟ أين ضاعت أسألتهن، وفي أي بئر أخفينها؟!.



- شيء عجيب.. ما عندهن أسئله

تقول سهام مستغربة، وهي التي تولد في ذهنها الصغير عشرات الاسئلة كل يوم، وهن هنا منذ سنوات. كيف انقضى

وقتهن في مدينــة تزخر بالعلم وبالغربــة، الاسئلة وكل ذلك العطش اليس لديهن منه؟ لماذا تتجه احاديثهن هذا الاتجاه العجيــب؟ حتــى هــن لا يستمتعن بــه، وكأن الواحــدة منهن تنتظــر الاخرى لتتم حديثهــا لتتحدث هي عن نفسها، أو عن امر لا يعني سواها.

تستغرب سهام وهي تحدث منيرة عن بعض تلك النسوة:

- ليش هيك؟
- ماعندن شغلي وعملي... بخلصو شغل البيت وين بدن يروحو؟؟.. بملو
- اي.. عشانهن بملو لازم يكون الحكي مفيد.. بعلّم.

منــذ الاشهــر الأولى أقرت جازمة أن هــذا ليس ما تريد، ماتريــده هو مزيد من المعرفــة، معرفة في اي اتجاه ممكن، ان تعــرف. كل جارحــة في سهــام تريد ذلك، فكيــف لها أن تقارن بيــن اهتماماتهــا واهتمامــات زائراتها مــن النساء، حديثهن وحديــث السيّد عباس، هذا السيّد الذي تراه سهام يعرف كل شيء، وقادر تماماً على ايصال أي فكرة تخطر.



لذلــك كانت تنتظــر تلك الجلســات بشغف، وتحــاول أن تستبقيــه ، وهــو يرى ذلــك في عينيهــا وفي الاسئلــة، وقرر منحها المزيد من الوقت، ولكنها لم تكتفِ:

- مش عنــدك طــلاب بالمدرسه اللبنانيــه بعدن جداد وعم تعطيهن دروس

- اي..
- اعتبرنا أنا ومنيرة طلاباً من طلابك

وهكـذا كان، سعيدة هـي، أكثر سعادة من أي وقت مضى، ورائـع أستاذهـا وهي تـرى هذه الصـورة الجديـدة، صورة الاستـاذ الجـاد، وتخـاف اهتزازهـا أو المسّ بهـا. وتصنع من نفسهـا تلميذة غاية فـي الجديّـة والادب، تلتهم دروسه التهامـاً، تصغـي وتسمع إلى مـا يقول حرفاً بحـرف، تدوّن وتتابـع، وتراجـع الدروس مـرة ومرتيـن، وتحضّـر للدرس القادم وتساعد منيرة في فهـم الدرس، وتُدهش السيّد مرة أخرى فيقول:

- مش معقولة انت
- ...

اربكتهـا الصدمـة وصـارت تبحـث على عجـل عن خطا ارتكبته فلم تجد، صمتت وهي تنظر اليه، وتابع السيّد كلامه بدهشة واضحة:

- أنت من أحسن بعض طلابي..
- عن جد؟
- جد... انا ما كنت متوقع هيك



وانتهـت المعضلة عرفت سهام الطريـق، في البدء كانت حائـرة غير راضية عن أيامها والان عرفت واستقرت فرحة، لطالما كانت تردد:

- أريد أن أفعل شيئاً.. أيّ شيء

كل تلـك الطاقة لم تكن تدري أيـن تضعها، وحين عرفت أصبحـت المـرأة الأولى التي تدرّس فقهاً وأصـولاً وعقيدة ونحواً.

وأصبـح الدرس درسين.. قالت لزائراتها أنها لا تستطيع استقبالهـن سـوى يـوم الخميـس، أزعجهـن ذلـك، ولكنها حياتها التـي أمسكـت بخيوطها ونظمت ساعتهـا، الخميس لاستقبال الزائرات وتنظيف كامل المنزل، الجمعة تقوم هي بالزيارات، وللمناسبـات الاجتماعية وزيارة امير المؤمنين، وباقـي الأيام للدرس وشـؤون المنزل، وأصبـح الدرس عند السيّـد درسيـن، ثم اعجبـت بالفكرة زوجة احـد المشايخ، فانظمت إلـى الدرس. فيما تبرع زوجهـا الشيخ، بتدريسهن مادة اضافيه. ثلاثة دروس، بعد الدرسين عند السيّد يذهبن إلى منزل الشيخ لتلقي الدرس الثالث.



رسائل وصلت

شعـرت أن سهـام النشيطة الـدؤوب تعود. أربعـة أشهر وتغيرت دنياها.. اصبحت سهام التي تريدها، سهام النافعة الحاضرة المؤثرة.. سهام ذات الوجود الواضح عادت.

علـى الارجوحة كانـت تحمل الكتـاب، وان ضـاق الوقت يكـون الكتاب فـي المطبخ، مستغلـة الدقائـق الفاصلة بين عمـل واخر. تراها تردد قواعد فقهية أو لغوية وهي تسير في الدهليـز وأرض الدار، وتحرض منيـرة على الدرس وتعينها علـى الفهم، وتجيب عن اسالتهـا. سعيدة هي بكل هذا. انها هـي وكما تريد، لـم تعد تكتفي بقراءة القـرآن وحفظ بعض الصـور، جعلها درس التفسير ترى القـرآن بشكل مختلف، أصبح أكثر وضوحا وتأثيراً، ازداد جماله وازداد حبها لآياته وصارت تحفظ المزيد..

كأن الباب فتح على جنة ما كانت لتطأها قدماها من قبل، وهي تخطو فيها مبهورة مأخوذة بجمالها، تجمع ما تستطيع يدها من ثمار قطوفها الدانيّة، وكلما تذوقت ازدادت شغفاً.



وفـي كل ذلك تـرى السيّد يتابعها سعيـدً، لا يُخفي فرحه بها، طفلتـه التي ما انفك يرعاها، زهرتـه التي تتفتح بأكثر مـن عادة الزهور، وتنظر اليه تـراه مزهوا، لا يخفي انبهاره بها، وبمنزله الذي يعبق بعطرها وذوقها.

كل ما كانت تريده هو أن تكون هي، سهام بكل تفاصيلها، تتدفـق كما شـاءت لنفسها أن تكـون، وهذا السيّـد العارف المعلم، حنونٌ عطوفٌ بأكثر مما ينبغي، أب وأخ وزوج، ويحتل حتى مساحة الصديق الصـدوق، هو من يفتح الدرب ويرفع كل عائقة في المسير.

في ذلك اليـوم حين انتهت هي ومنيرة مـن كامل أعمال المنـزل، وفـي الوقـت المحدد لدرس السيّد انكسـر ابريق الزيـت في بـراد المنزل، ولوث البراد بما فيـه، وتسرب إلى ارض المطبخ، دخـل السيّـد وكان لا بد من تـرك كل شيء والالتحاق بالدرس، حتى اذا انهى السيّد درسه قال:

- خلص الدرس.. قوموعا درس الشيخ
- مش راح نروح عادرس الشيخ اليوم
- ليش؟.. اذا مليتو عاراحتكن
- لا ما ملينا.. بالعكس.. بس
- بس شو
- انكب الزيت بالبراد والدنيا قايمه قاعده
- البراد لاحقيـن عليه.. الدرس اهـم.. بعدين بتنظفو



عامهلكن.. الا اذا مليتو هذا شي تاني

لـم تكن قد ملّـت، بل هي في شـوق للدرسـ ومتابعة مادة الامسـ، ذهبت وتابعـت الدرس ثم عادت تُسـرع الخطى إلى المنزل، دخلت وهي تفكر في تنظيم وقتها، وما الذي تستثنيه.

وقفـت مدهوشة أمام المطبخ والبـراد الذي يلتمع نظافة فريـدة، لا اثـر للزيـت الـذي كان متناثـراً على جـزء كبير مـن الطبخ. ظلت تنظـر وهي على وشك البـكاء. لا من أجل الجهـد الذي بذلـه السيّد فـي تنظيفه بهذا الشـكل الفائق، بل بالرسالة التي أرسلهـا السيّد عبر هذا الجهد. رغم وقته الضيق المحسوب بدقة، رسالة حب وتعاطف، وكلام عظيم، موعظة فذة تستطيع سهام إدراك كل أبعادها، موعظة طويلة صامتة، تلمع واضحة كما هذا البراد اللامع.

- «لكم أنت بليغ أيها السيّد في صمتك كما في حديثك!».

لم تترك بعد ذلك سهام درساً، موعظة وصلت، رسالة حب وصلت، بفعله هذا وبأفعال كثيرة اخرى كانت ابلغ من الكلام.

تـرى السيّد فـي كل شيء متفوقـا، ومختلفا فـي جماله، والاثر الذي يتركه، حتى بـات تعلقها بحضوره يحتل مساحة وجدانهـا. تنتظره بكل شغف الانتظار، صـوت مفتاحه، وهو يـدور في قفل الباب وسط الصمت هـو أجمل الاصوات وقعاً علـى مسامعها، فتترك ما في يدها وتركض عبر الممر اليه، فحضوره هو وقتها، وقتها الملون بألوانه الزاهية.



من بعد صلاة الصبح، تقف إلى جانبه، وهو يرتدي ثياب الخـروج، تلبسه عبـاءة وتخطو معـه في الممر إلـى الباب، وهـي لا تفتح له باب الخروج، فتـح الباب يحزنها، تنظر إلى ابتسامته التي يتركها لها مؤونة في شتاء غيابه، وهي لا تغلق البـاب، هو يغلقه، وتظل لحظات خلـف الباب تستمع لصوت خطواته تتلاشى عبر الطريق. لقد أُغلق الباب، واصبح باقي اليـوم يفتقر اليـه، لحظة صمـت تستعيد خلالهـا ابتسامته وصـوت خطواتـه، تودعها في خزانـة القلب حتـى يعود، ثم تنطلـق راكضة إلـى تفاصيل منزلها تُعيـد ملامسة كل جزء فيه، بحركتها السريعة النشطة، وفي كثير من خطاها تتلمس راحتـه ورضاه، في متاعـه، في مكتبته ومـكان الجلوس، في طعامه..

تضحـك سهـام وهـي تتذكـر أيامهـا الأولـى وطبخـة الفاصوليـا، كانـت الطبخة الأولـى، طبختها هـي ومنيرة . كانت سعيدة وهي تضعها على المائدة، سهت عن الاكل وهي تنظـر إلى السيّد يأكل من طعامها، فخورة بما صنعت، تتابع ابتسامته وهو يأكل، وحين أكلت شعرت أن طعم هذه الطبخة غريـب، ليس الطعم الطيب الذي كانت تتذوقه من طبخ أمها للفاصوليا، لقمة لقمتان وأكثر، والطعم الغريب ذاته، السيّد لا يُبـدي امتعاضـاً، رأته يكثـر من وضع الملـح على الطعام فقالت معتذرة :

- نسيت الملح



- بسيطـة.. أحســن ما تكـون مالحة .. هيـك كل واحد بحط ملح ع ذوقه

وتابع وهو يــأكل برضا، ويبتسم شاكرا بين لقمة وأخرى، وسهــام تتابعــه لتـرى ان كان يستشعر هذا الطعــم الغريب، اضافـة لمشكلـة الملح هناك طعــم آخر مختلـف. ربما هي وحدها من استشعرت بهـذا الطعم المختلف الذي لا علاقة لــه بالملح، بقيت تأكل وهي تنتظـر منيرة التي أتت متأخرة، وما ان أكلت منيرة لقمتها الأولى حتى قالت بامتعاض:

- الطعم الغريب؟!

تبادلت معها النظرات وقالت

- طعم غريب مش هيك

- أي ... من شو؟؟!

نظرت سهام اليه.. فابتسم وهو يتابع الاكل قائلا:

- بسيطة .. حطيتو بقدونس بدل الكزبرة

- ...

- انتم شاطرين لدرجة انكم اخترعتم أكلة جديدة

لقد مضى على ذلك شهور عديدة، أصبحت سهام تعرف ذوق السيّد في الطعام، رغم عدم اهتمامه وقلة حديثه عنه، وعـدم اعتراضه عليه، تعرفه مـن اقباله، من عدد اللقيمات التي تعدها عليه، فــان كانت قليلة فالطعام خارج ذوقه، وان كانت وسطا فالامر مقبول، وان كانت أكثر فتلك اكلة يحبها.



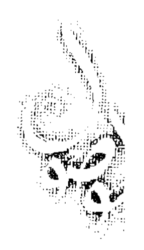
علـى الرغـم من قلة الفـوارق الا انها كانت تـراه، تستكشف ذلـك استكشافاً، حتى أصبحت خبيرة به، وصل به الامر إلى أنه اعترض قائلاً:

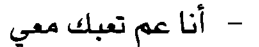
- انـت هيك حتعملي مني أكـول... أنا هيك حصير آكل كتير بسببك

ولأنـه لا يـأكل كثيـراً، جعلهـا هـذا تهتـم بنـوع الطعام وفائدته. لعلها بذلك تعينه على الاهتمام بصحته، فالسيّد لا يهتـم بنفسه، ليس الطعام فحسب، يرق قلبها من أجله، فهو لا يراعي نفسـه ولا يسأل عن راحته أبدا، مشاعر الام ولدت في قلـب سهام مبكرة من أجله، فهي تتابع كل شيء يخصه، تنظـم وقتـه، تتعهـد راحتـه، دفء الشتـاء وحـر الصيف، لباسـه حتى وسائده ومـكان جلوسه، حتى متاعـه وأغراضه الشخصية، فهو لا يطلب ولا يعترض، جعلها هذا تحفظه عن ظهر قلب، فهي تعرف تماماً ما يريد، وقبل ان يريد، وأدهشه ذلك وتساءل مراراً:

- كيف تعرفي؟؟.. كأنك تعلمي الغيب

يكفـي الطبيب الجـرّاح أن يمد يده ليعـرف مساعده أي أداة يعطيـه، وتعامله كام خبيرة عارفة، ويخفق قلب أمومتها بشدة حين يقول:





- أنا عم تعبك معي

معالم في البناء الجديد

انتظـم كل شيء .. يشجعها السيّـد ويردد معها قول أمير المؤمنين:

- الله الله في نظم أمركم

مـا أيسر أن تنظم الامور، وما أيسر الامور بعد تنظيمها، لـم تجد صعوبة فـي كل ذاك سهام، ما يـراه غيرها صعب، تراه هـي أمراً عادياً، فـأي تغيير بحاجة إلـى بعض الجهد، وهـو سهل عليها، ربما لأنها اعتادته منذ صغرها، ان اقتنعت وأرادت لا تلتفـت للجهد. فالتعب في رأيها هو أن لا تكون كما أرادت، ليس التعب في قطع المسافات بل التعب في الدوران مع الفوضى، التعب في أن لا يكون لوجودها أثر ومعنى، التعب في أن لا ترى فعلها أمام عينيها ينمو ويثمر. وكل خطوة تفتح أمامهـا باباً جديداً يفضـي إلى ساحة أرحـب وأكثر جمالاً، وهـي لا تكفّ تخطـو ولا يكف جديدها عـن التكشف، وافقها عن الامتداد.

وتزوجت منيـرة، جاء المرجع السيّد محمد باقر الصدر

وعقـد قرانها هنا فـي منزلها. جاءت منيـرة لبضعة اشهر، للصيـف فقـط، وابقاها الـزواج في النجـف. سعيدة بزواج منيـرة، سعيدة ببقائها في النجف، بالرغم مما تركه غيابها عـن منزل سهام من أثر وفـراغ، كانت تملأ البيت بظرافتها وحسـن خلقها. احتاجت سهام إلـى وقت للاعتياد على ذلك، واعانتها عليه منيرة فهي لم تنقطع عن زيارتها. وخاصة يوم الخميس.

وانشغلـت سهـام بمضاعفة القراءات، اصبـح لها مكتبة مستقلـة، وما طلبـت من السيّـد كتابا الا وجاءهـا به، رغم الظروف المادية الصعبة، فالكتاب عندهما معا اولى من كل شئ.

لقـد اعتادت مع الوقـت زائراتها على مـا أرادت هي من نظـام، وان حاربنها في البدء وسمعت مـن بعضهن سخرية وكلاما جارحاً:

- ناقصها عمامة ومسبحة سهام
- الشيخة سهام آية الله...

وظل يوم الخميس يكتظ مع الوقت بهن، فسهام وابتسامتها والترحيـب، حضورها وتلـك الجاذبية، كل هـذا كان كافياً. حتـى اللواتي لا يوافقنها لا يستطعن نكـران حلاوة صحبتها والحضـور. واصبحـن يسمعن لبعض كلامهـا والنصائح. فهـي تلبسها لبوسـاً مختلفاً بعيداً عـن المباشرة، ولا يجدن



غضاضة في استشارتها، واتباع ما تقترحه لحل مشكلاتهن. وحتى من هن أكبر منها سناً بكثير يحببنها، رغم هذا الفارق في اسلوب الحياة، ليس في ابتسامتها فحسب، بل في روحها، في اصغائها، في هذا التعاطف الظاهر في عينيها، وفي قدرتها على حل المشكلات. وهي تتذكر في صغرها كان ذلك ميزة فيها، طبع من طباعها، شيء خُلق معها، ويكبر كما تكبر.

تلك امرأة أكبر منها بسنوات، تشكو صغيرها الذي يجاهر عامداً في عصيانها وايتاء كل ما لا تحب، يتعمد قهرها وايذاءها، عملت سهام في حل المشكلة على مسارين، حدثت الام عن أسلوب تعامل مختلف، يشعر فيه الصغير بحضوره وكيانه المستقل، ووضعت زيارتها في برنامج يوم الجمعة وقابلت الصغير، نأت به جانبا وحدثته كصديقة في مثل سنه، وكسحر ساحر، تغيرت أمور الصغير.

وتلك الصبية التي حملت لواء الحرب على سهام، في كل المجالس، اعتبرت سهام عدوّاً دون ان تعرف سهام سببا لذلك. زارتها سهام ضمن من زاروها بعد ولادتها، وشاهدت كم هذه المرأة مغلوبة! وكم هو محزن ما تعانيه! فهي أم لصغيرتين في نفاسها الذي أعاقها عن الحركة. قامت سهام بعد خروج الضيوف، بصمت وابتسامة، دارت على المنزل الصغير بأسرع ما تستطيع، وهي القادرة المعتادة على الانجاز السريع المتقن. ضيق وقتها علمها ذلك، لم



يكـن الامر يتطلـب الكثير من الوقـت ليكون المنـزل مرتباً نظيفا طيب الرائحـة، والصغيرتان نائمتان بعد حمام دافئ ومريح. والصبية تنظر اليها ولا تدري ماذا تقول. حاولت أن تشكر.. فأسكتتها سهـام بأصبع على شفتيها وابتسامة، فلم تجد الصبية سوى البكاء رداً على سهام التي قالت:

- ما في داعي للشكر... ليش انا شو عملت؟!!

لـم تكن هـي الصبية الوحيـدة التي أعانتهـا سهام، هي تشعر ان هذا واجبها فعلا، لذلك قبلت راس الصبية وقالت:

- هذا اقل الواجب

- ...

- راح أطبـخ الـي والك هالكـم يوم.. لا تهتمـي بمسألة الاكل.

وظلـت طوال أسبوع تعودها.. حجزت لها ساعة من وقتها الضيـق، أما الطعام فلم يكـن مشكلة مع سهام، هـي اعتادت أن تزيـد الكميـة فـي طبخها، فضيـوف السيّد كثـر وكذلك محبـوه وأصدقـاؤه، كريم ومضياف ولكنـه لا يُثقل عليها ولا يتشدد، يفسح لها حريـة القرار، تاركاً لها خيار المبادرة ان شاءت، واثقا من حبها للعطاء، محترما لوقتها الضيق، حتى وان طلب فله طريقة فريدة لا تشبه الطلب.



- بتعرفـي يا سهام.. قبل ما الله ينعـم عليّ فيك.. لما كنـت أعزب مثل الشبـاب اللي بالمدرسـه كنت أفرح

كثير بس آكل من طبخ شي بيت.

كان هذا يكفي بالنسبة لسهام، فمنذ ذلك اليوم أصبحت سهـام تزيد من كميـة الطبخ كلما طبخت مـن غير حواضر المنـزل، ليأخذهـا السيّـد قبـل الغـدا. سعيـدا إلى طلاب المدرسة اللبنانية.



تغيّرٌ في معاملة السيّد

حتـــى بعــد أن تزوجــت منيــرة، لم يكــن طبخهــا طبخاً لشخصين أبــدا، وان زاد الطعام يبقى لليــوم الثاني، ويوفر لهــا هذا بعض الوقت، وأيضا بعضــ المال، فالموارد المالية القليلــة كانت هــي الاقدر علــى ادارتها، فلا يشعــر بها أحد مــن الضيــوف أو الجيران. وحتــى السيّد يعجــب من ذلك. أيــام عديدة وجيوبه خاويــة، ويدهشه أن الامــور تظل تسير بلا فــروق واضحة أو قاهــرة، وان كان هــو لا يهتم بموضوع الطعــام، الا ان ضيوفه ما شعروا يومــا بالفارق، حتى اعتاد على هذه المعجزة، ويقول:

- سهام في ايدها بركة.

في الاشهر الأولى كان يفكر بها، يخاف عليها من صعوبة هــذا العيش، يحاول تجنيبها مشقتــه ما استطاع، ثم وجدها أكثــر قدرة منه، فرغبتها فــي العطاء، ونكرانها لذاتها يجده أشــد من نكرانه لذاته، لأجل ذلــك شاركها هذا العطاء كما شاركهــا كل شــيء، شاركهــا حباً بهــا ولها، وهــي التي ترى وتلمس لمس اليد شدة تعاطفه، في عناية ومداراته لها، فهي



تــراه يداريهــا كما يدارا الزجاج الهش وهــو يُحمل من مكان إلى مكان، عناية لا تشبه الا عنـاية أب بطفلته المدللة.

مــع الايام كان يشتد الحرص، وتتحول العناية إلى لهفة، ما كان ليثقل عليها ويسترسل في كل ذلك الا بعد أن علم أنها تــرى تماماً ما يراه عن العطاء، كلاهما كانا يعتبران العطاء وجه من وجوه الأخذ، هي تفكر كما يفكر ويقول:

- أن تتمكن من العطاء فتلك نعمة كبرى.

كلاهمــا يأنــس بالعطــاء كما يأنــس من يعثــر على كنز، تساعــده وتفتــح أمامه الدروب، بل أكثر مــن ذلك. فهو يرى في عينيها الشكر والامتنان بعد كل ذلك الجهد الذي تبذله، قــد تضع الافطار ثلاث مرات وأكثــر للضيوف القادمين بلا حــرج، وكذلك العشاء والغداء، وفي كل ما تقوم به في معزل عنه، من خلال صلتها بالنساء وخدمة من تستطيع خدمتهن بوسائل شتى.

في البدء كان يخاف عليها الغربة والتعب وشظف العيش، لكنهــا رفضــت أن تسير الا إلــى جانبه، يؤلمهــا كثيرا منعها مــن المشاركة، لا ترى هذا المنع حبا وحماية، تراه حرماناً، ومــا كان ليحرمها أبــداً، شاركها في كل شــيء، في خطواته وفــي الدرب الذي اختاره، سارت معه والى جانبه، لم تتخلف عنــه ولم تعقه، كل هــذا جعلــه يسترسل، ولكم هــي سعيدة باسترسالــه، بالسير إلى جانبه. ويشتد وضوحا حبها لكل ما



هـو فيه، حين تكون الامور في مفاصلها الاصعب، حين يشتد العيشـ ضيقاً، يضع المال المتبقي بيـن يديها، معتمداً على ادارتها الفائقة، دون ان يشغله ذلك.

فـي ذلك اليوم، لـم يبقَ لديها من المـال سوى قطعتين، دينـار وربع الدينـار، وراتب الحوزة أمامه أيـام ليصل، كان يـوم جمعة والسيّد في المنزل، طرق بابه معوز فأعطاه الربع دينار وهو ينظر اليها قائلا:

- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.

وعـاد إلى كتبه ودروسه، لم يمضِ وقت طويل حتى طرق الباب رجل آخر، اعتاد على ان يطرق باب السيّد كلما احتاج، حمل الدينار وأعطاه اياه وعاد إلى دروسه، ظنت سهام أنه لا يعلم ما الذي أعطاه، فقالت بلهفة.

- أعطيته الدينار كله؟!

- بدي الو صرفوا ورجعلي الباقي؟!

- معك حق



وغرقـت فـي ضحـك طويـل، تبـع ذلـك أيـام والطعام مـن حواضر البيـت، والسير علـى الاقدام لمتابعـة الدرس والتدريس.

وفـي شهـر رمضـان يكون العطـاء أكثـر أخـذاً وفائدة، حيث يكثر الضيوف والاطعام فـي السهر الطويل مع الدرس والمباحثة، وطلاب المدرسـة يفطرون في أغلب ايامهم من

طعامها حتى لا يبقى لهما منه الا القليل. ويضيق الحال ويقل المــال، حتى المونة القادمة لهم من الاهل عبر الزوّار تنفذ، ولا يبقــى لها ما تطبخــه من حواضر المنــزل. حتى اذا عاد السيّــد يوما قبــل الافطار بقليل، أعطته آخــر ما تبقى لديها مــن مــال ليجلب خبــزا وقليل مــن البطاطا والخضــار، بما يستطيــع هذا المال القليل شراءه من سوق الخضار القريب، وانتظرته ليعود. فلا شيء في المنزل، حتى ضاق وقت النهار وشــارف على الانتهــاء. وما ان فتح الباب حتــى ركضت اليه لتحمــل ما جاء بــه وتعجل بتحضيره للفطــور، لكنها صدمت بيديه الفارغتيــن، نظرت اليه فرأته يبتسم صامتاً، ضحكت ودار حوار بينهما وهما يضحكان، قالت:

- السوق مغلق اليس كذلك؟!

رفع حاجبيه اشارة النفي

- حدا عزمنا على الافطار؟!

هزّ رأسه نافياً

- ضيعتهن أكيد.
- لا أبداً .. عملتهن عشر أضعاف.

علمــت أنه تصدق بالمال.. نال البر بأحب ما كان لديهما لأنه كان الاخير، فقالت:



- ما فــي بالبيت غير شوية فتات خبز يابس.. كنت بدي أعمل عليهن فتوش.

قال ضاحكا كأنه اكتشف حلاً:

- أي عازمنا أمير المؤمنين ع فتوش بزعتر وماي.. شو؟ .. ما بدك؟

- بلى والله... ما في أحسن من عزيمة امير المؤمنين.

لا يحتاج تحضير افطار مثل هذا إلى وقت، كانا منشغلين بالدعـاء وقـراءة القـرآن حين طـرق الباب. خافـت سهام وارتجـف قلبها، رجت أن لا يكـون سائلاً محتاجا، لأنها تعلم كم يعز على السيّد رده.. وكادت أن تبكي حين خطر في بالها أن يكون ضيفاً أو أكثر. فهمست:

- يا أمير المؤمنين..

سمعت رجلا يقول للسيد:

- لو سمحت سيدنا افتح الثانيه.

بعدهـا سمعـت صـوت الدفـة الثانيـة للباب وهـو يفتح، وأصوات حركة زائدة، وسمعت السيّد يتساءل:

- وبعد فيه؟؟.. ما شاء الله..

ابتعـدت إلى جوف الغرفة.. خوفا مـن أن يراها الداخل، إلى أن سمعت السيّد يغلق الباب ويقول لها:

- تعالي شوفي عزيمة أمير المؤمنين يا سهام.



وأذهلها ما رأت، سدراً كبيراً عليه أصناف عديدة فاخرة مـن الطعام، وسـدراً أصغر عليـه أنواعاً مـن الفواكه رُتبت بتنسيـق جميـل، وفيهـا فعلا ما لـذّ وطاب. وقفـت مذهولة

تداري انفعالها المتزايد وهي تسمع السيّد يقول لها:

- أمير المؤمنين ما كان يقبل تكون عزيمتو أقل من هذا

بكت سهام ثم جمعت على عجل من كل صنف أغلبه

- هول بتاخدهن للطلاب

قبّـل رأسها المنحنـي على جمـع الفواكه، دمعـت عيناه وتغير صوته وهو يقول:

- الله يجازيك الخير.



تأثر وتأثير

الحيـاة مـع السيّد في تلك الاشهر تعـادل عمراً في نظر سهام، في كل ما رأته منه، تعادل عمراً في كل ما تعلمته منه. هـذا المد المتواصل الدفاق، وتلـك الاواصر التي تزداد قوة وعدداً في كل يوم، فهي تراه كما لم تر أحداً من قبل، في كل أوقاته تراه، مثالاً فريداً، في قيامه وقعوده، في صمته وحديثه، فـي نهاره وليله، ليله الطويل الطويـل، متى ينام؟ هي لا تراه نائمـاً، تنام قبلـه وان أطالت معه السهر، تصـارع نومها ما استطاعت، ويغلبها النعاس، وكلما استيقظت تراه مستيقظا فـي جوف الليـل، هاجـراً مضجعـه يتقلب فـي الساجدين. صمـت الليل يحتضـن أنينـه الخافت، وصوتـه الرخيم، في مناجاته التي تأسر القلب، وذاك التوسل الطويل الذي يزداد رجـاء واقترابا ثـم يبكيه، يبكي بكاء غـارق لا يطيق مقامه، بكاء شاكر خجل من نعم يرى نفسه لا يستحقها، ولطفٍ ليس أهلاً له، بكاء من أثقلته الذنوب. وسهام تبكي مرة لان بكاءه يبكيها، ومرة لانها تقارن ما يقول بنفسها.

- «ما الذي يبكيك يا سيدي وأنت بما أنت عليه؟.. وكيف

بـي انا؟.. ان كنـت ترجو المعذرة وتتوسـل العفو فأنا أولـى منك بذلـك، وان كنت تشكر ربك خجـلاً، فأنا أولى منك، ان كان هذا مكانك فأين مكاني؟».

هـذه العشرة التـي قاربت العـام كأنها العمر كلـه، عشرة استطاعـت أن تصيغ الماضي، تعيد بنـاءه، أو تجعله ذائبا في طيـات هذه الشهـور. وما عاد الماضي القريـب يُشاهد الا من خلالهـا، أصبحت سهام تنظر إلى ماضيها وكأنه امتداد مبكر لهـذا الحاضـر الواضح المعالم، مقدمـة لا يمكن فصلها. كل قديمها لم يكن سوى اعداد لحضورها هذا، وانها ما خُلقت الا لتكـون مع السيّد عباس، زوجة وشريكـة لهذا السيّد المثال أم لـه، وتلميذة في آن واحد، سعيدة بكل هـذا، بما اكتسبت وبما تعطي حتى اختلط الامر، وما عادت تفرق بين العطاء والكسب.

سعيـدة بحبات العـرق وارهاق الجسد، وهـي تعجب لكل هـذا، ويعجب منها سواها، فهي تأنس بهذا الجهد كما يأنس الكاسـب بمكاسبه الثمينة، وفي كل هذا كان حاضراً أميرها وسيـد قلبها، فهي تراه في كل شيء مبرراً لوجودها، حاضراً فـي كل حركة وسكـون، دربها إلى الخالق والـى الرسول وآل بيتـه، هـو من فتـح باب تلـك الدروب، هـو من أخـذ بيدها ومازال، برفقته تخطو خطوتها السريعة الواثقة تلك. سيدها الحاضر حتى في غيابـه، تظل كلماته وبسمته مطبوعة حتى يعـود، فتفتح نوافـذ روحها لاستقبال جديـده عطشى. تجف روحها ان طال غيابه لايام.



لـم يكن ذلك الغياب ليطول، كانت مهمات قصيرة بطلب مـن المرجـع السيّد محمد باقـر الصدر، مهمـة إلى لبنان، للتبليغ ومتابعـة الشؤون الدينية كموفد مـن قبله، أيام قليلة لكنها في غاية الطـول بالنسبة لسهام، تحسب الايام، وحتى الساعات، بعد سفره بيوم، أو يومين:

- متى يعود

فـي آخـر أيـام غيابه تشعـر بجفاف فـي الـروح، تشعر بالاختنـاق، يتعبها غيابـه، يمتص قدرتها علـى الاستمرار، تذهـب دامعة العينين إلى ذاكرتهـا، التي لم يعد فيها سواه، كما في حاضرها كل شيء متعلق به، منه واليه، كل شيء من حولها تراه فيه، هو مرآتها.

عندما سمعت مديحا لها، سمعته جارتها من السيّد:

- السيّد عندو اياك بالدنيا
- ليش شو قال؟
- انتي نعمه من نعم الله عليه.

قضـت ليلها وهـي تستحضر حياتها معـه، لقد ترك فيها حديـث جارتـه مـا يستدعيها لاستكشـاف مكانهـا ومكانه، ويتردد صدى كلمات الجارة:



- انتي نعمه من نعم الله عليه.
- «لا يا سيدي، كل ذلك من صنعك، أنت معلمي، ورفيق دربـي الشفيق الصابر، في كل فعل لي اشاهد واضحاً

أثـرك وتأثيـرك. حتـى علاقتـي بربـي الرحيم منك استمدّت قوتها وغناها، وكل تلك المعرفة وما اكتسبت مـن علوم. وحـب محمد وآلـه أضحى أكثـر وضوحاً، وأضعاف مـا كان عليه بفضل حديثـك عنهم، بفعلك بخصالك التي هي بعض مـن فعلهم وخصالهم، أنت وكل مـا أنت فيه فكيف بهم. وما فعلك الباهر الساحر الا مـن بعض تعاليمهم. لقد أخذتني بيديك إلى مكان ما كنت لأبلغه أبداً لولاك، أين كنت انا قبل أن التقيك؟ والى أين اخذتني وسموت بي ايها العزيز؟.. وما زالت ترتقي وتأخذني بيدك.

- لسـت كأي أحد يـا أميري، لسـت كأي أحد.. اختلفت دنياي منـذ أول يوم لي معـك. ذاك كان تاريخ ولادة، ولادتـي انا وكما اريد، بأكثر مما كنت اريد. بأكثر مما كنت اعرف عن الارادة والطموح.. وتفتحت بصحبتك الفـذّة أبواباً واتسع المدى، وبـات الطموح أسمى من أن يقاسـ بالمقاييس التي كنت اعرفها.. لا لست كأي أحـد، فأنـت السيّد عباسـ الموسوي. لـم ار لك ايها العزيـز نظيراً في معاصريـك.. وما سمعت عن شبيه يقترب منك. لا لست كأي أحد، يا درباً إلى السماء».



ليس كأي أحد، منذ الاشهر الأولى، بل منذ الايام الأولى، علمت واثقة، أن هذا السيّد ليس كأي أحد.

حتـى الحمل حملهـا الأوّل ، حبها لجنينهـا تضاعف لانه

ابن السيّد عباس، فرحها بالحمل لا يأخذ شكله الا بعد وصله بفرح السيّد وسعادته بذلك الحمل:

- سنسميه ياسر، ما رأيك يا سهام؟!
- واذا بنت؟!
- سميّة
- ليش ياسر وسميه؟
- نتبارك، كأن حديث الرسول ﷺ بيشملنا: «صبراً آل ياسر
- بكون موعدنا الجنة.
- ما بدك؟

تبتسم، لا تحتاج إلى الاجابة ولا هو يحتاج، لأنه خبرها بما يكفي، حتى بات يعرفها كباطن كفه، سعيدة هي بفرح السيّد واستبشاره بالحمل، وازداد السيّد تعاطفاً معها في حملها، وهو العطوف اصلا، وازداد رقة مع ازدياد ثقل الحمل، حتى حرمها من بعض ما كانت فيه، وهو الذي يعتمد عليها ويثق بها ثقة مطلقة.

- حرام عليكي هيك كثير...ارحمي نفسك شوي يا سهام.



ولما ازداد الحمل ثقلاً:

- ستذهبين إلى لبنان

اعترضت بلوعة وخوف

- أتركك؟؟..

- هون الولادة مش ميسرة كثير..

ترجّته فترجّاها وأصر.

- هذا حملك الأوّل .. وهناك أمك وأهلك.

بكت.. فحنّ ورقّ لها

- حبيبتي كم يـوم وترجعي.. بس تخلص أيام النفاس بترجعي..

- ....

- ما تتأخري أكثر .. صعبي العيشي بلاكي

تركتـه في المنزل وتركت قلبها فيه.. نظمت له الامور في كل حاجاتـه، وأوصيت كل من تعرفه، أعدت له ما استطاعت ليكون مرتاحـاً طوال فترة غيابها التي لـن تتجاوز ١٥ يوماً. ثقتـه بها واعتماده عليها كل تلـك الفترة، جعل قلبها يعتصر لتركه وحيداً في المنزل، وتتدفق مشاعر أمومة ليس لوليدها الـذي على وشك القدوم، بل للسيـد الذي كانت ترعاه كأكثر الامهات حناناً كما يقول هو.



بين امومة وامومه

حيـن وصلـت إلى لبنان، ظـل السيّد شديـد الحضور في قلبها والذهن، رغـم الانشغال الكبير، وهذا الكم الهائل من الفـرح والناس، والحـب الذي أحيطت به بعـد أكثر من عام علـى غيابها، لم يستطع كل ذلـك التغطية على صورة السيّد الوحيد في المنزل.

ومع الايام صار يشتـدّ ذلك وضوحا ووجعاً، تشتد ضغطاً مشاعـر الامومة اليه، أضيف اليها الشوق. شوقها اليه، كلما خلت إلى نفسها اشتد اثـره، وتحاول التعويض باسترجاع ما فـي ذهنها المزدحم بذكرياتها معـه، لا تكف عن الدعاء له راجية ليرعاه الله بلطفه وعنايته.

- يـا ربي وأنـت أرحـم الراحميـن، تركته بيـن يديك، وأوكلته اليك، يا خير وكيل، يا خير معين...



ثـم وصلـت مـن السيّـد رسالة، حدثهـا فيها عـن شوقه اليها، وعن حضورها الدائم في ذهنه، وشجعها على الصبر والاتكال على الله، طالباً منها الدعاء.

قرأت الرسالة عشرات المرات، بعد أن حفظتها عن ظهر قلب، ظلت تطالعها فتلك الحروف حروفه والنقاط، تراه بين السطـور تراه ذابلاً وقـد أتعبته الوحدة، تحـاول ازاحة تلك الصـورة فلا تستطيع، فهي تعرف أنـه يهمل نفسه، لا يعتني بحاجاته أو طعامه.

مـع أول طلقات الولادة بـدأت بالدعاء له، لم تدعُ لنفسها وهـي علـى وشك الـولادة، علـى وشـك الدخول إلـى صعب مستصعب كما يقول النـاس، إلى مخاض ومعركة مع الموت مجهولة النتائج.

وفـي وسـط آلام المخاض لم تكن لتكفّ عـن الدعاء له. حتى في الساعات الاخيرة حينمـا تقاربت الطلقات تسمعها من حولها من النساء تلهج بالدعاء للسيد عباس.

وصلـت إلـى المستشفـى وهنـاك لـم تجد سـوى الرجال لمساعدتهـا علـى الـولادة، رفضـت بحسم، ولـم تنزل من السيارة، وحسمت الامر رغم التوسلات:

- لن تكون الولادة على يد رجل.

قيل لها أن هناك ولادة من آل الخنسا، فتمسكت بقرارها وأصـرت، وكانت ولادة صعبة قيل أن المولود ليس في الوضع الطبيعي، وانتظروا طويلا في ولادة عسيرة، وجاءت المولودة أنثى، نظرت إلى الوجـه الصغير، ورأت السيّد فيها فشكرت الله وبكت.



في اليوم التالي شاهد الجميع ورماً في كلا القدمين، أخذت الصغيرة إلى الطبيب، وبعد الفحص والصور تبينت الكسور وجُبّرت الساقين الصغيرتين، واستقر بها المقام في وسط أهلها ورعايتهم، اخبرها الاطباء عن حاجة الصغيرة إلى العناية والمتابعة وتقرر عدم السفر بالصغيرة وتعريضها للصعاب، وأمر الاطباء بالبقاء في لبنان لمدة ثلاثة أشهر حتى فك الجبار وما يليه من فحوصات.

وضعها هذا القرار في موقف غاية في الصعوبة، هنا الطفلة والحاجة إلى العناية الطبية، وهناك قلبها وروحها وكل دنياها. لا هي تستطيع البقاء ولا الذهاب وترك السيّد هناك ثلاثة أشهر اضافية، أمر لا يمكن تصوره، وكلما قالت أريد السفر نظرت إلى الصغيرة وبكت. لا تستطيع تحميل الصغيرة كل تلك المشاق، والرعاية الطبية المتوفرة هنا افضل بكثير مما هي هناك. ثم تتذكر السيّد، وما الذي سيعانيه خلال كل ذلك الوقت. وانشطر قلب امومتها نصفين، نصف هنا ونصف هناك.



عناية الاهل بها وبالصغيرة فائقة لا مثيل لها، وعلى وجه الخصوص من زوجة العم أم السيّد. منعتها في فترة النفاس وما تلاها من بذل اي جهد، امها الثانية هذه تعلمت من الطبيب كل ما تحتاجه الصغيرة، تنظر اليها سهام وهي تقوم بتغسيل الصغيرة وتلبسها، وفي حضنها تطعمها الحليب الذي لم يتوفر عند الام، تنظر اليها سهام، إلى

اللهفـة في عينيها، والـى كل ذلك الحب العجيب الذي تبديه للصغيرة، سعيدة سهام بتلك العاطفة العجيبة:

- سبحان الله!

ابتسمت لقول الجارة:

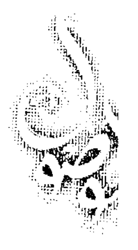
- ما اعز من الولد الا ولد الولد.

تنظر إلى هذه الجدة بتعاطف كبير وهي تغني للصغيرة، تلك عاطفة ام، تسكبها أم السيّد عباس على ابنته.

- «لكم انت محظوظة ايتها الصغيرة بمثل هذه الجدة»

وتدمع عيناها

- «وانت ايهـا الحبيب هناك وحدك.. صغيرتي الحبيبة هـذه يزدحـم عليها الاهتمـام، وبالـكاد يسمحون لي بممارسـة امومتـي.. اسرقها طفلتـي الجميلة لاتفرد بتلك المشاعر الجديدة الباهرة، لهذا الكيان الصغير الـذي تتجسد فيه ارقـى العواطف فـي امومة عصيّة على الوصف، امومة انت جعلتها طاغية الحضور فهي جزء منـك.. اراك في عينيهـا الجميلتين، كأنك انت هنا.. وكلما اغمضت هي فتحت عيناي لأراك وحيداً.. ما اقسى يا سيدي ما اعاني حتى اراك»



حتـى جاءت رسالة ثانية من السيّـد، لم يكن يعرف بامر القدمين الصغيرتين المكسورتين، لقد شكر الله في رسالته علـى سلامة الام وسلامة الصغيرة سميّة، حدثها عن شوقه

اليهـا بأشد ممـا ذكر في الرسالـة الأولى، وشكـى لها وجع الشـوق ووحشـة الحيـاة دونها، وعـن المنزل الـذي أضحى كئيبـاً يبعث على الحزن، كأن جدرانه تشكو فراقها الصعب، وطلـب منها أن لا تعود بـراً رفقاً بها وبالصغيرة، قال انه في انتظارها على أحرّ من الجمر، وأنه قضى اليومين الاخيرين يفكـر بهدية تليق بها، حتى استقر به التفكير وعرف الهدية، فاشتـرى لها مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكتب التي تحبها. لا أحد يعلم ماذا أصابها سوى أنها أغلقت الرسالة وحزمت أمرها وأمتعتها.

- سأذهب لأطمئن عليه واعود..

وتقرر أن تبقى الصغيرة تحت رعاية الاهل والاطباء، وأن لا تطيـل سهام السفر وتعود قبل شفاء الصغيرة، وكان قراراً حاسماً لم تسمح سهام لأحد بمناقشته.

لقـد اكتشفت سهـام مشاعـر الامومة وقوتهـا بعد ولادة سميـة، وأن مشاعرهـا التـي تتجه إلـى السيّـد تحمل كامل مشاعـر الامومـة تلـك، وعـادت اليـه بلهفـة الام والأخـت والشريكة، بلهفة الابنة والتلميذة.

شهـران وأيام تيقنت من خلالها بصوابية ما اتخذت من قـرار، فسيـد قلبها لا يهتـم بنفسه أبداً وكأنهـا لا تعنيه، هو تماماً كما قال أميـره وأميرها علي بن أبي طالب» نفسه منه في تعب والناس منه في راحة»



عادت معه إلى لبنان إلى طفلتها.

حين رأى السيّد طفلته الصغيرة احتضنها وبكى قائلا:

- تذوقت الصبر في أول أيام دنياك يا سميّه.. صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة.

مكثا حتى شفاء الصغيرة، وأنهى السيّد أعماله وما كُلّف به، وعادا بطفلتهما إلى النجف، عادا بكل ذلك الزخم وإن تضاعف الجهد في الاشهر التي تلت ولادة سمية، وزاد كمّ الاستثمار للوقت، وأخذ العمل أشكالاً إضافية مختلفة، مختلفة بالشكل والمضمون.



انه العبور

ازداد استثمار الوقت، وبدأت حياة سهام تأخذ شكلاً آخر، وكان الـدرب قد اتسع وامتدّ صعـوداً، فاشتدّ كثافة عطاءاته والاستثمارات، وكأن خطواتها السابقة قد أوصلتها إلى مكان أوسـع، مـكان رحيب مشرف فـي ارتفاعاته وأكثـر قرباً من السماء، مـكان تنشر فيه طاقتها، وحماسها المتدفق. أبواب جديـدة تفتحـت على آفـاق جديـدة، زاد فيها عـدد النساء اللواتـي رافقنها واشتـدّ عودهنّ، بها ومنهـا، خاضت معهنّ الـدروب الجديـدة صعوداً، فـي الدرسـ والاهتمامات، فقد تضاعف الدرس وتنوعت المطالعات، واشتدّ العمل والنشاط الدؤوب.



وهي تمارسـ امومتها بكل شغف، وتعطـي لسمية اقصى ما تستطيع اعطاءه ام، تقرأ في الصحة والحماية، تستشير، وتبحـث في ادق التفاصيل. كلما ضـاق وقتها أعادت تنظيمه لتجـده قد اتسع بما يكفي وتجد الهامـاً دائما، وشيئاً يتجدد فيهـا. اقترابها من السماء يزداد، هي تصعد ترتقي، شعرت سهـام أنها تزداد قرباً فـي كل يوم، وتـزداد رؤيتها وضوحاً

كلما اقتربت. شعـرت بوجود تلك الرحمة وذاك اللطف، من رب رحيم عطوف يرى خطواتها اليه، ترى نفسها وهي ترحل عميقـاً فـي ساحة رحمتـه، وتنضوي تحـت رداء لطفه الذي يتدفق، يسمع مناجاتها ولسانها الذي ما انفك يشكره.

كأن سحبـاً تتبـدد طبقاتها تباعـاً، كلما صعـدت ينقشع الضبـاب، وينجلـي البصر، على جمال باهر مـا كانت تراه. فتخطـو ثم تنظـر إلى قدميهـا، وترى الفـارق اذ تجد بينها وبيـن خطواتها السابقة مسافات، حتـى ان عينيها تكادان لا تصلان إلى ما هو أقدم، أو هي لا تريد العودة حتى ببصرها إلى ذلك القديم، وتعجب كيف كانت وكيف أصبحت.

هذه الاشهر تمر وهي تتدفـق فرحاً بالنور الذي يشملها، ويشمل جنبات الدرب، دربهـا إلى السماء إلى ربها الرحيم، وتشتد رغبتها في الاقتـراب، حتى يصبح كل يومها بدقائقه والساعـات هو خطـوة اليـه، وكل خطوة تجعل الـدرب أشد وضوحـاً، وأكثر انكشافاً لجمالاته والنـور. وتكبر فرحه هذا الانكشـاف، وتملأ جوانحها سعـادة وأنساً. لقد تذوقت طعم التقـرب اليـه، ولمست بـكل جوارحها تلك النتائـج الباهرة الفـذة. تقتـرب وتـزداد تعلقـاً، لتـزداد طمعـاً بالاقتـراب والوصول.



سهـام تُعجب مبهورة وهي تتقرب اليـه، تريد لكل خطوة من خطواتها ان تكون له خالصة صافيه، كل حركة أو سكون، تتقرب اليه حتى بأنفاسها، وهي على وضوء دائم.

- ان الله يحب المتطهرين

وكل نهارهــا يشبه الصلاة، تريد البقاء في المكان البهي الساطـع، تستوحشـ فـي غير سـواه، تضبـط كل فعل وقول باتجاهــه ليكـون خالصاً له، فهي تغفو والذكـر على لسانها، مناجاته والشكر وتبكي لتقصيرها، وتظل تردد:

- ما أعظم العطايا وما أقل الشكر.

تبكـي سهام وهي ترى كم هو لطيـف بها، كم رعاها وكم أكرمها، بكل ما انعم عليها فيه، بكل ما تراه من جماله ونوره، وبمــا اسبغ عليها مذ وجدت على ظهر هذه الدنيا. لم يتركها هائمــة ضائعة، رفع أمامها الحواجز لترى الطريق اليه، زرع فــي جوارحها وفي العقل حبه، ثم قرّبهــا واسلكها دربه. ولم يكتف بذلــك، وهو الكريم اللطيف المنــان، لم يكتف بذلك! تــوّج عطاياه بتلك النعمة الكبــرى، قرّبها اليه بعطية لا مثيل لها. لقــد جعلها رفيقه السيّد عباس، هــذا السيّد الذي أخذ بيدها وأدخلها إلى درب قل سالكوه، وندر عارفوه، درب جعله الله لخاصة أولياءه، دخلته لأنها رفيقة السيّد عباس، رفقتها للسيد كانت جواز مرورها.



فكيف تشكر الله على كل ذلك، لا تجد سهام سوى دموعها وهــي تناجي خالقها في الليل، تقوم مع السيّد عباس والناس نيــام، ليتدفق هذا الشكر دعاء باكيــاً في صلاة الليل، تسمو سهام برفقــة السيّد عباس، يصحبها صوتــه الشجي وانينه

الباكي، وتلاوته الفريدة للقـرآن، إلى أذان الصبح. لكم هو الوقـت قصيـر، ولكم هي سريعة تلك الساعـات ولا تستطيع المكـوث، ليتهـا تطول العمر كلـه في حضرة الله مـع السيّد عباسـ، لا شيء أجمل في رأي سهام من ان تكون في حضرة الله مع السيّد، لا شيء أبدا.

الاشهـر تمـر، وسهـام ترتقـي، وتتبـدى أمامهـا أماكن أكثـر ارتفاعاً، وأقـرب إلى سمائها الرحيمـة، وهي تنهل ما استطاعـت بعطش، كطامـع يخاف من النفـاذ، كمن يتزود لرحلـة طويلـة. تريد أن تتعلـم المزيد، أن تعـرف، أن تعلم، وأن تقترب. وأبواب جديدة تتفتح كلما تعلمت، أبواب جديدة تتسع أمامها الدروب، والاماكن ترتفع، وكلما ارتفعت انفسح أمامها المدى.

كان واضحا لديها ان الامر اختلف تماماً.. انه العبور.



اضافات على الطريق

لقد اخذت سميّة من كل شيء حيزاً، دخلت في كل تفصيل كان قبلها، ظهرت كوجود واضح في كل ذاك الوقت المنظم، والموزع على مهام شتى، كان لا بد من ازاحة هذا وضغط ذاك، والتوليف بين مهمة الامومة المتصاعدة اعباءها، وبين ما كانت عليه سهام، دون ان يكون امر على حساب آخر، وبالاخص لن يكون على حساب سمية. سميّة التي شاهدت فيها سهام دفعاً كبيراً للتقرب، في كل ما قراته عن الامومة في الاسلام، عن ثوابها والأجر الجزيل، لكل ما تحتاجه الامومة من جهد كبير، وعاطفة لا مثيل لها. فرحت بذلك سهام، وارادت ان تستثمره بكامله والى اقصى الحدود، طمعا بذلك الكرم الدافق، لتخصص لها المزيد من الجهد والرعاية، وتحاول بكل ماتستطيع ان توفق بين هذا الجديد وما كانت عليه من قبل، واثقة من ان ربها سيعينها، واثقة من نجاحها في كل هذا.

تختصر وقت الراحة، تاخذ من ساعات النوم، تقرا في المطبخ، تعمل وسمية بجانبها، وترى عون الله في ذلك كله

واضحـا، لقد عـادت الامور إلــى سابق عهدهــا وافضل مما كانت بكثير، في المنزل ومــع الزوج، في الدرس والمطالعة، في العلاقات الاجتماعية، و...

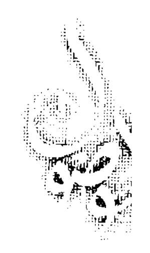
هــي لا تدري كيف، ومتى شعــرت ان ذهنها أكثر انفتاحا، وعقلها أكثر قدرة واحسن ذاكرة، في استقرار نفسي ورضا، وهــي تتوجه إلى ربها في كل هــذا شاكرة تريد بكل جوارحها مزيدا من القرب اليه.

لم يعقها الحمل الجديد ولا ابنتها، رغم ثقل الحمل، كأن شيئاً لا يتغير، كل جديد يأخذ مكانــه، ويزداد وقت العبادة، فــكل شــيء عنــد سهام عبــادة، تتقــرب في كل شــيء، وفي ساعات العبادة تنقطع اليه، بكل جوارحها تنقطع اليه.

سعيدة بكل هذا الجديــد الذي يتكاثر، تمر الاشهر بكلها منشغلــة تتســارع الخطــى لتظل لصيقــة بسيدهــا وحبيبها ومعلمهــا السيّد عباس. وحين الحّ عليها أن تذهب للولادة في لبنان رفضت بحزم، فتلك تجربة لن تكررها.

كان واضحــا ما تريد، وواضــح ما تستطيع، لن تبتعد عنه السيّد بإرادتها، وبغير ارادتها لن تستطيع الاحتمال طويلاً.

علــم أنهــا لا تريد، وهو مــا كان ليريد مــا لا تريد، ولكنه محــب مشفــق، فأرسل إلــى لبنان فــي رجاء حار لعــل أمها تستطيــع القــدوم، ودعــا الام لزيــارة الأئمــة والمقامــات الشريفــة، والاشــراف على الــولادة، وإعانة سهــام، وان من



الناحيـة النفسيـة فقط. وهو يعلم ما لهـذه الناحية من أثر، يريد أي شيء يخفف عنها، بأي شيء يقدر عليه.

جـاءت الام، ولكـن عطـلاً أصــاب الباص جعلهــا تتأخر أيامــاً. فــرقّ السيّــد لرفيقــة دربــه، ورافقها طــوال الوقت، بالدعــاء والحضور وبقلبه الخافــق. وشاهدت سهام تعاطفه ولهفته والقلق الذي أبداه. جعلها كل هذا تكتم آلامها، تمتص أوجاعها ما استطاعــت وتنظر اليه، واثقة من قدرة حضوره علــى التخفيف عنها، لكنها سعت إلــى ابعاده في آخر دقائق الولادة، خوفاً عليه وحباً.

وجاء ياسر، ولدها الثاني، السبيل الجديد للتقرب. مهمة أمومــة ثانية، وفرصــة تقرب جديـده، تحرص علــى حملها بأحســن ما تقدر عليــه. عبادة تكون خالصــة صافية لوجهه الكريــم، خطوة أخرى باتجاهه. ساعيــة في اداء تريد له ان يكــون الاحسن لانه مرتبط بــالله. ان تكــون أفضل الامهات وأصبرهــن، ان تمنــح الامومــة كل مــا عندها، ومــا أكثر ما عندهــا!. تقــرأ مــن أجلهمــا وتتعلم مــا لا تعرفه فــي الطب والتربيــة والامومة، تبحث عــن كل الاحاديث التي وردت عن الرسول وآله، لتستعين بارشاداتهم على أفضل الاداء.

كان وصــول الام مؤثــرا، والام وحدهــا مــن تعرف معنى الامومــة، معنى الحمــل ومعنى الطلقات والــولادة، وكل هذا الجهــد المبذول. وتعتــرف لامها بحسن الامومــة، تحضنها وعلــى صدرها تتذكر كل ذاك الجميل. الفائق حنانا وعطفا.

هــي الان اشــد امتنانا مــن اي وقت. تقبل يدهــا وتسألها ان تعفو، ان تغفر لسهام الصغيرة هفواتها، وما كانت تسببه من تعب، فتلامس أم هاني راس ابنتها وتقول مستنكرة:

- انت.. ليش في حدا كان متلك

كان علــى القافلــة ان لاتمكث في النجــف الا اياماً قليلة، فقــررت الام ان تبقى مع ابنتها حتى تعود القافلة من ايران. اعترضــت أم ياسر بشدة، رفضت هــذه التضحية الجديدة، تضحية كبرى في نظر أم ياسر.

- لا يا أمي.. لا..

- ...

- زيارة الرضا يا أمي!... إنها زيارة الرضا!!

- بس أنا...

ورفضــت أم ياسر بشدة، هي مــن اتصلت بالحملة، وهي مــن وضبــت أغراضها، وهي مــن رجتها وتوسلــت اليها، ثم قالت كلاما لا تستطيع أمها رده:

- دُعاك لي عند الإمام الرضا عليه السلام.. يكفيني يا أمي.. أرجوك يا أمي

رغم حاجتها اليهــا، ورغم الشوق، كانت سعيدة لأن أمها ستزور الإمام الرضا عليه السلام وستدعو لها هناك.



أنهــا أم ياســر، سعيدة بهــذا اللقب الجديــد. أم لاثنين، سميّة وياسر. عبادة جديدة، وفرصة اخرى. تسأل وتستشير وتقــرأ عن هذا الجديــد، خصوصا في ردة فعـل سمية على وجــود ياســر، لا تريد ان تهمل شيئــاً، أو ان يفوتها اي شيء. وتريــد ان تبقــي على كل مــا كانت عليه، مزيد مــن المعرفة والعطــاء لتصل إلى مزيــد من القرب. تريــد اقتحام دروب جديدة، اماكن جديدة.

أهــم تلك الاماكن منزل السيّد محمد باقر الصدر، كانت على معرفة بهذا السيّد العظيم الجليل، فهو استاذ زوجها قبل زواجه منها. قدم من لبنــان اليه، حاملاً معه رسالة توصية، من ابــن عمه السيّد موسى الصدر، الــذي كان استاذ السيّد عباس ومربيه قبل قدومه إلى النجف. بقي تلميذ السيّد محمد باقر الصدر ومن مريديه في كل تلك السنوات. وما سمعته أم ياسر من زوجها خلال هذه السنوات، ومادرسته في السنوات الأخيــرة من كتبه، جعلها مبهورة بعلومــه السامية المتنوعة، ولذكر اسمه على مسامعها وقع من الرهبة والتقديس.

جـاء إلى منزلها فـي زواج منيرة، لكنها لـم تره، سمعت صوتـه وهو يأخذ وكالـة منيرة، تلمست هيبتـه والبركة التي تركهـا في المـكان. لقد صنعت له صورة فـي ذهنها، صورة مقدسـة مهيبـة، وحيـن زارت منزلهم للمـرة الاولى، كانت برفقة صديقتها المفضلة (ام زهراء).

دخلـت إلى منزل تلـك العائلية وفي قلبهـا رهبة من بيت علـم ومرجعية استقطبـت العقـول والقلوب. لقـد هالها ما رأت، وترك ذلك أثر في وجدان أم ياسر، أثراً عميقاً، تعلمت منـه الكثير، لم يكن التواضـع في الخلق فقط، بل في الاثاث والمـكان، كل من كان في تلك العائلـة الكريمة كان مثالاً في أدب العـارف وتواضـع العالم، ظاهراً واضحـاً في كل أفراد تلـك العائلة، في أمه التي بـدت بالرغم من تواضعها، سيدة كريمـة الاصل، مهيبة الحضور، مقعـدة قليلة الكلام، وذات حضـور بهـي لافـت، كأن هالة مـن التقديس تحـوم حولها. وكذلـك في زوجة المرجع «أم جعفر» شقيقة الإمام الصدر، القريبـة من القلب حد التماس، حتى في بناته وابنه الصغير جعفر. كل ذلك أخذ مكانه في وجدان أم ياسر وقلبها.



وظلـت تتلفت منتظرة حضور تلك السيّدة التي جعلت لها أم ياسـر مكاناً منفرداً في وجدانهـا. سيدة قرأت لها وعنها وسمعـت الكثير، انها السيّـدة «آمنة الصـدر» «بنت الهدى» أخت الامـام، المرأة الاولى فـي معاصريها ومن سبقهم في الزمـن القريب، امـرأة عالمة معلّمة. حيـن دخلت وقفت أم

ياســر، ووقفت صاحبتها، لتريا عن قرب هذا المثال الجديد المتجــدد. وكان لقــاءً حــاراً، كأن معرفــة سابقة لــه أغنته، وأبعدته عن كونه اللقاء الاول.

اجتمعت أم ياسر وصديقتها بعد ذلك ببنت الهدى مراراً، ودخلــت أم ياسر ابتداء من هذا اللقاء والذي تلاه إلى مكان جديـد، محطة جديدة، مكانٍ عالي آخر، اطلت منه أم ياسر علــى أفــق جديد شاسع، أكثــر قرباً للسماء مــن كل الاماكن التي سبقت.

من اللقاء الاول، اظهــرت بنت الهدى بوضوح فرحها بام ياسر ورفيقتها، حين عرفت بما هما عليه.

كانت فخورة بهما، بما أنجزتاه، فخورة بحديث أم ياسر، بعلمها وثقافتها، بالوقت المستثمر والعمر الصغير، أظهرت بنت الهدى فرحها بهما، وكأنهما بشرى لعيد وهي تقول:

- الان اطمئن قلبي.

أخبرتهمــا أنها تحب لبنان، وتعلم كم هو بحاجة، ونساؤه على وجه الخصوصــ، للارشاد والتوعيــة، للتبليغ بالرسالة عن علم ومعرفــة. لقد اخذتها بنت الهــدى إلى مكان جديد وساحــة جديــدة. أرادتهــا أن تحمــل سلاحاً آخــر من علوم جديدة، قالت لها ان السطوح في علوم الحوزة كافية للنساء، طلبت منها التوجه الجاد للعلوم الاجتماعية، وحثّتها بحماس قائلة:

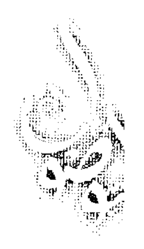


- من الآن اهتمي بشؤون الناس وشجونهم، بمشاكلهم والحلول. وهذا الدين اضحى مجهولاً، لا يعرف المسلمون عن دينهم الا القليل، علمي الناس يا أم ياسر، أغنيهم بالعلم لتعينهم المعرفة على أمور دنياهم والاخرة.

تعلمت منها الكثير، وهي تعرف كم أن بنت الهدى ناشطة اجتماعياً، تديّر مدارس ومعاهد وجمعيات، وتتابع التفاصيل والهموم، وان منعها النظام في الآونة الاخيرة وقيّد حركتها، لكنها ظلت تتابع ما استطاعت. وأرادت لأم ياسر أن تكون كذلك.

بقيت أم ياسر تتابعها وتتعلم، تعلمت منها أن أقرب الطرق لله هم عباده، وأن حاجة النساء أشد من حاجة الرجال للتبليغ. وتبليغ الرسالة يجب ان يكون من الاولويات، من ضمن الاهتمام بالناس، بالمحيط وكل ما له اثر في ذلك.

لم تقتنع أم ياسر فحسب بل تبنت كل ذلك، وأقرّته في قلبها ايماناّ راسخاً، وحملت رايته بحزم، وجعلته همها، واكتسبت الكثير في السنوات الاخيرة،



الرحيل الموجع

ثم عــادت أم ياسر، عادت سريعاً بــكل تفاصيلها، عادت وفي ذهنهــا هذا الجديــد، يعتمل وينمو ويتفاعــل، أصبحت ترى أنهــا مسؤولة عن كل ناسها همومهم ومشاكلهم. في كل السنــوات السابقة، كانــت تنظر اليهم من عيــن القلب، من حبها لهــم. لقد تغير شيء أو تشكل مــن جديد، بعد كل تلك اللقــاءات ببنت الهدى، ومحيطها وأثرها في ذلك المحيط، بحديثهــا الذي دخل إلى قلب أم ياسر وعقلها، صنع كل ذلك شيئاً آخر، عيــن تستطيع بها النظر إلى ما هو أعمق، إلى ما هو خلف النظرة الاولى، إلى ما هو أكثر من الحب.

نظــرة تطلــق ذاك السؤال لمــاذا؟ سؤال يسبــق الكيف، يسبقه بأشواط، لماذا هم كذلك؟ قبل كيف تعالج المشكلة؟ أصبحــت أم ياســر أقــدر بكثير علــى كشــف المشكلة، وهي تقف أمامها لمــاذا، ألا يرون ما تراه، ألا يشعرون بم تشعر؟ تقــف أمام من ابتعد عنهــا كثيرا مذهولة، مــا بالهم، لماذا لا يخرجون مــن القبور، لماذا لا يفتحــون أعينهم والجوارح لهــذا النــور، يعشقــون الظلمة أم هــم اعتادوهــا؟! أرادوها



بمحض ارادتهم. حاشى لربها الرحيم أن يحجب نوره عن خلقه، حاشاه سبحانه. الشمس خلق من خلقه ولا تحجب نورها والدفء، ماذا تفعل الشمس لمن اغلق ابوابه والنوافذ دونها؟ هم الذين حرموا أنفسهم، بتثاقلهم إلى الارض، غرّتهم الحياة الدنيا، فتثاقلوا والتصقوا وفقدوا حتى هذه الدنيا التي ارادوها، فعموا وصموا.

ان كان منبع السعادة همهم، فهي من أكثر الشاربين لها ارتواء، هي أكثر فرحاً وحباً. انهم مخدوعون، لقد زيّن لهم، يلهثون خلف فرح سراب، فاذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً، سراب آخر بزينة الشيطان، وخداع جديد.

أم ياسر محبة، حتى ان حبها لهم ارتبط ارتباطاً وثيقاً بحبها لنفسها حتى توحدا، بل أصبح أسبق، أليس التقرب لله هو رأس ما تريد، اوليس الخلق عيال الله، واحبهم اليه احبهم إلى عياله؟ هؤلاء هم اقصر الطرق اليه، ان يهتدي بها انسان إلى الاسلام خير لها مما طلعت عليه شمس.

حزمت أمرها، فهؤلاء الناس بحاجة اليها، ستفعل كل ما تستطيع، لن تكفّ عن محاولة التغيير، ستأخذ بيدهم، وستبذل كل جهد ممكن، والى جانب زوجها ستحمل راية التبليغ، تضع لماذا نصب عينيها، تطّالع وتسأل، تقرأ وتتلفت عن السياسة والظلم، عن الاستضعاف والفقر، عن المشاكل الاجتماعية، عن العادات، التقاليد، الهموم اليومية، تنظر بعمق إلى الداخل، إلى الجذور مسلحة بالحب، بوصايا أهل العصمة.



بنت الهدى أميرة نساء ذاك العصر، مثال وقدوة، بنت الهدى التي لم تر فاصلاً بين هموم السياسة والهموم الاجتماعية، كانت تحارب النظام الجائر إلى جانب أخيها المرجع الفذّ.

حين تجرأت المخابرات على اعتقاله، خرجت بنت الهدى إلى الصحن الشريف، وحرّضت الناس ودعتهم إلى التظاهر والاحتجاج، فاجتمع الناس وارتفع الصوت، فأخرجه سجّانوه مرعوبون خائفون.

الاشهر التي تلت كانت غنية، مكثفة، وإن كان آخرها مغمّس بالألم والخوف.

لقد بدا النظام حملته على النجف الاشرف، وضغط على الحوزة العلمية يحاول تفكيكها، يحاول حصار كل ما يتعلق بالايمان، خوفا منه على وجوده، ورأى أن الايمان هو الخطر الداهم. التفت إلى الحوزة العلمية على انها المكان الذي ينبع منه ذاك الخطر، وبدأ يحيك حولها المؤامرات، من الاتهامات بالتجسس، إلى الادعاء بمحاولات قلب النظام، إلى الاتهام بالعمالة إلى شاه ايران، معتمدا أساليب تعسفية عديدة. ثم اعتمد أسلوباً آخر يهزّ كيانها المتماسك، ضارباً في جذورها، هادماً لأحد أركانها وهي الجالية الايرانية، فسفّر مبعداً إلى بلاده كل من يحمل الجنسية الايرانية ثم رحّل حتى المجنّسين في التابعية الايرانية، عراقيون منذ عشرات السنين لا يعرفون شيئاً عن ايران الا انهم في

اصولهم القديمة ايرانيون. كان عددهم كبيراً جدا. وخاصة في النجف، بدأ الترحيل فجأة، وبشكل كبير. فحدثت الكثير من المآسي، وأم ياسر تنظر اليهم وتبكي لمأساتهم الفاجعة، كانوا يرحّلون بطريقة عشوائية، يأخذون الرجال من الأسواق ومن اماكن عملهم، من الشوارع، دون علم عائلاتهم.

بالقــرب من منزل أم ياســر، رحّل أحدهم، وظلت عائلته الكبيــرة تنتظــر، دون أن تعرف عنه شيئــاً، تنتظر في الجوع والحاجة، ومعيلها ملقى على الحدود في المخيمات، تزودهم أم ياسر بما استطاعت من مؤنة ومال ومواساة. كانت هجمة شرســة حتى لم يبقَ أحــد من تلك التابعيــة. والنجف تغصّ بالمآسي من جرّاء ذلك الترحيل. وقد ترك ذلك أثراً جارحاً فــي نفس أم ياسر، شاهدت بــأم العين، ولامست كيف يبتعد البعض بنفسه عن تلك المعاناة وهو يقول:

- مالنا وللسياسة

وتذكــرت أن تلــك مقولة من خــذل الحسين عليه السلام ، تلك المقولة التي تفسح الطريق أمام الظلم، وتفتح له الابواب.

وتشتــد الضغــوط علــى الناشطيــن القلائــل وحتى على المقربيــن منهــم، ويفرّ الناس فرار الكوفييــن من مسلم بن عقيل.



وأشد تلك الضغوط كان على منزل السيّد الصدر فانتشر في محيطه المخبرون، وعلى أبواب الدروب المؤدية اليه.

ولم تكف أم ياسر عن زيارتهم والتواصل معهم، متحصنة بالنقـاب الذي تلبسه أغلـب نساء المعممين، كانت تشاهد ذلـك الحصـار والتضييـق، وتناقص عـدد الحضـور عند السيّدة العظيمة بنت الهدى يوماً بعد يوم.

مـن تلك الاحـداث تعلمت الخوض فـي السياسة ومتابعة مجرياتهـا، خاصة في لبنـان ومحيطها عبـر السيّد عباس. تتكشف لها تلك الدهاليز وأساليب الظلم، ودواعي الازمات، وكيـف يستثمـر الساسة اوضـاع بعينها، وعبـره عرفت عن فلسطيـن أكثر، وعـن تلك الدولة العنصريـة الشرسة، وهي تغوص في مشاكل العراق ومعاناة النجف وتراها بأم العين، وتعتمل في روحها معاناتهم، واشتداد ألازمة المتسارع.

وتقتـرب الازمة منها، من أم ياسـر ومنزلها، حين بدأت تلك الهجمات تطال الشعائر الدينية، واعتبر النظام أن زيارة الإمام الحسين عليه السلام عبارة عن ثورة صامتة، فتوجه بقمعه اليهـا، وخص زيارة الاربعين منها بشديد القمع، حيث اعتاد العراقيون وكثر من أفـراد الجاليات وطلاب الحوزات زيارة سيد الشهداء سعياً على الاقدام، ليصلوا إلى مرقده الشريف فـي يوم الاربعين، أسوة بالقافلة المسبية والسيّدة زينب، في مواسـاة لا علاقـة لها بالسياسـة، ولا هي ضـد النظام لكن هذا التجمع اخافه وأقلقـه. وكان السيّد ورفاقه ممن واظبوا على تلـك المسيرة حبا وتقرباً. وحين اشتدت الهجمة منعت وقمعت هذه الشعيرة ولوحق المشاركون والمتعاطفون، فطال



ذلـك الجالية اللبنانيـة. واستغلها النظـام لتقويض الحوزة وفرط عقدهـا، فطال الاعتقال والترحيل أفراداً من الجالية اللبنانيـة من طلاب الحوزات. ثـم أصبحت النجف معسكراً لقوات الامن، وانتشر الخوف ووصلت الارهاب والضغط إلى أعلـى المستويـات، كان السيّد عباس خلالها فـي لبنان في احدى سفرات التبليغ المعتادة .

دوهمـت المنـازل واعتقـل ورحل عـدد مـن الاشخاص، وبدأت المخابرات تحيط بالمنزل، خافت أم ياسر واحتملت اقتحام المنزل، فحفرت حفرة في حديقته الصغيرة، ودفنت فيها الاوراق والرسائـل، وكتب السيّد محمد باقر، وهي ترى مخابـرات النظام يحومون حول بيتها، في خروجها ودخولها الذي بات محصوراً بالضرورة.

تلـك كانـت تجربتهـا الاولى، عرفـت من خلالهـا أنها لا تخاف على نفسها وصغيريها، كان كل تفكيرها متوجهاً للسيد عباسـ، حتى جاء أمر من السيّد محمـد باقر الصدر إلى أم ياسـر أن تبلغ السيّد عباسـ أن يبقى في لبنان، وعدم العودة في الوقت الحاضر، طالباً منه أن يكمل مهمة التبليغ في لبنان دون المجازفة بالعودة، حتى يطلب منه السيّد ذلك.



فامتثـل السيّد عباس، وخاف أصدقـاؤه ومريدوه على أم ياسـر، واحتمـال أن تتعرض لـلأذى وهي صاحبـة العلاقة الوطيدة بـأم الهدى، نُصحت هي وصديقتهـا أن تغادرا إلى لبنان سراً وبأسرع وقت.

وتــم تهريــب المتاع علــى دفعــات صغيره، وخــلال أيام، خوفاً مــن إثارة حفيظة رجــال المخابــرات ونساؤهم، حتى إذا أصبــح ما خف وزنه وغلا ثمنه من المتاع خارج المنزل، خرجت أم ياســر بالصغار بل متاع، وكأنها ذاهبة للتبضع أو للزيــارة وقد أعدّ لها الاصدقاء رحلتها الجوية، وانتظروا في المطار عبورها.

لم تشعر بالامان الا بعد ارتفاع الطائرة عن الارض، تنظر إلى كل هذا الذي حدث، مذهولة تتساءل، ماذا يحدث، حتى متــى يستمر النظــام بحملته تلك، هل يستطيــع الاستمرار؟ كل هــذا القمــع لا بد سيــؤدي اذا ما استمر إلــى ثورة تطيح بالنظــام، الحوزة ورجالهــا وبلد العلم، لن تهــون على شعب العــراق. خرجت وقلبها يخفق حبا لتلك المدينة. رغم أن ما عاشته فيها لم يكن سوى سنين قليلة اذا ما قورنت بكل ذاك الكم الضخم من الاكتساب.

فراق النجف صعب مستصعب، شعرت بصعوبة رحيل بلا موعــد محدد للعــودة، ضمّت طفليها إلــى صدرها وبكت في رحلة العودة إلى الوطن، رحلة لو كانت تدري متى تنتهي وتعود إلى النجف لكانت رحلة فرح، إلى اهلها والوطن، رحيلها عن النجــف بتلك الطريقــة والعودة غير معلومــة، جعلت الرحلة إلى الوطن رحلة حزينة قلقة.



أربــع سنوات وبضعة أشهر، طويــت وكأنّها لم تطوَ، واثقة أم ياسر أنّ سنوات النّجف، باقية شديدة الحظور.



الفصل الثالث

الصعود إلى الوصول

الجعل الكريم

لقد عادت وطنها على غير ما غادرت، وحده ذلك الشوق وهذا الشعور بالانتماء ما عاد خارجاً، صار مجبولاً بعبء كبير، بحب كبير، لناسها كلهم، تشعر ان قلبها صار مدى، افقا بلا حدود، تستمع لهم جميعاً، هي تعرف الآن، هي الآن جاهزة، ستكون لهم بكل ما تستطيع وكما قالت بنت الهدى:

- نشر الرسالة.

وهي جاهزة لسلوكها هذا الطريق، مهما كانت الصعاب، وجاهزة لتكون معه، مع السيّد عباس وجزء منه، تبصر به وتسمع، وترى ملامح الطريق.

قلبها يخفق كعادته كلما اقترب لقاؤها بالسيّد، حتى وان كان الغياب لبعض يوم، وكأن القلب لا يخفق حين لا يكون، كأن جرعة من حضوره الفذ قادرة على بعث الحياة لجسد انهكه غيابه. وهي الآن منهكة، وما انهكها سوى غيابه، لا شيء يُتعب أم ياسر مثل غيابه. ما يعرفه الناس من تعب الدنيا، عمل، وضيق وقت، ظهر يتألم أو اقدام متورمة، فقر،



و... لا يعني هـذا الكثير لام ياسر، بل لا يعني شيئاً اذا ما قورن بغياب السيِّد عباس. حين تلقاه لا يعود لهذا كله معنى، ابتسامتـه قادرة على محو كل شيء، حضوره المجرد، صوته يكفي، بل حتى صوت مفتاحه في قفـل الباب، خطواته وهي تقترب، من باب الدار، وباب القلـب، فيستعد القلب لنشاط جديد بكل القوة التي يبثها حضوره.

تتسـاءل أم ياسر أذاك هو طبع الزوجـات، أو على الاقل طبع في من حسـن زواجهـن؟ وتبحث أم ياسر في جولة ذهنيـة سريعة، على كل من تعرف، وعـن احسن ما في تلك البيوت، فترى تفاوتاً فيها بين حسن واحسن، وتتساءل لماذا هذا التفاوت في حيـن ان الجعل واحد، «وجعلنا بينهم مودة ورحمة»، هـذا الجعل الذي يبدأ مع الاقتـران كهدية من رب كريم، هدية لكل المتزوجين، اين يذهب وكيف يتناقص هذا الجعـل الكريم؟ تراه يضمحل بيـن الانانية والجهل، ظروف الحياة وسوء التقدير و... والكثير من تلك العيوب والاخطاء. وتدور على هذا الجعل العظيم الدوائر، حتى يغيب عن بعض البيوت كأنه ما كان.



الامـر في بيتهـا غير ذلك، فمـودة الجعـل الكريم كانت تنمـو نمواً عجيباً، لقد احتـوت منزلها كله، بل صار اكبر من بيتها والبيت ضمنها، إلى كل مكان امتد أثر منه وفيض، لكم تستغـرب مما كانـت تسمع عن شكوى هنـا، ومشكلة هناك، ومـا أكثر ما تشكو النسـاء!. لم الامر في منزلها مختلف، أهو

زوجهـا السيّد عباس، زوجها الذي لا ترى لـه نداً أو شبيهاً؟ هو أكثر الرجال قرباً في وعيها من امير المؤمنين، ولكم كان يقلقها ان تقصر، حين سمعت حديثاً عن رسول الله يقول:

- جهاد المرأة حسن التبعل.

ارتجفـت أم ياسـر امـام هـذا الحديـث وهـي تستشعر عظمتـه، اذ يفسـح للمـرأة مكاناً للولوج من بـاب فتحه الله لخاصة اولياءه، وجهـاد الرجال دم وخوف حتى تبلغ القلوب الحناجـر، وجهـاد المـرأة عطاء وحـب جبلت عليـه اصلا وخلقـة، هو في رأيها لا يحتاج الا إلى اطلاقه، لا تحتاج سوى رفـع الحواجـز والموانع عنه، حـب من السمـاء كأمطارها، خيـر دافق على تربة صالحة، هكـذا جعله الله، وهكذا تراه، تعجب لتربة مؤهلة منذ ان خلقت كيف لا تنبت والخير فيها، والسماء تسقيها بماء عذب فرات، ومودة جُعلت كعطية للخلق بلا استثنـاء، كما الارض تنبت دونما جهد افضل النبات، هي تعجـب للواتـي لا يستطعن رعاية نبتة الـود تلك، لا يستطعن الاستجابة لهذا العطـاء الرباني الكريم. ما تراه في نفسها، وفـي كل مـا تفعله ليس سـوى استجابة لعطايـا السماء، وما التعـب الجسدي سوى اهون المستطاع، والصبر على ظروف الحياة استجابة، والبحث عن راحة الزوج ليس سوى انعكاس لما في القلب من تلك المودة.



احـدى الزوجات كانـت بالغـة العبوس شديـدة التأفف، كثيـرة الشكـوى، تشكـو الغربة والفقـر، والـزوج المشغول،

تشكو الوحدة التي تعانيها في غياب الزوج، تشكو من نهار بلا انيس، من الملل، وقلة الترفيه، و... و... الخ. شكاوى لا تنتهي. وما ان يعود الزوج، ويضع قدمه في باب الدار حتى يخرج كل ذلك دفعة واحدة، في شكاوى لا تنتهي مصحوبة بالدموع وارتفاع الصوت. زوجها الذي جاء ليدرس، بأي ذهن يستطيع بعد ذلك وضع تلك العلوم، وهو الذي يعاني فوق ما تعاني؟.

الى كم من النساء قالت أم ياسر:

- ابحثي عن علاج لتلك المشكلات وانا اساعدك

تريد لهن ان يبحثن عن حلول غير تلك الشكوى العقيمة الهدّامة، ان يعالجن الوحدة باستثمار الوقت، ان لم يكن بطلب العلم، فبالعمل، ما أكثر ما تستطيع ان تفعله المرأة، حياكة وخياطة، واشغال فنية، وقد خص الله المرأة بذوق رفيع، اشياء كثيرة احق بالوقت والاهتمام.

علّمت عدداً من النساء بعضاً مما تعرف، وارشدتهن إلى المزيد، كانت تقف مذهولة امام هذا الذي يحدث في البيوت، بانفعال وبكثير من الحب والتأثر، قالت لصبية كانت على وشك الطلاق:



- ماذا تفعلين بزوجك وبنفسك؟ ان كثيراً من المشاكل مؤقتة وتزول، وما اهون الصبر عليها. ما اهون الصبر على فقر لن يدوم، واحوال تتغير، وماذا تفعل الشكوى

وما الـذي يُجنى من التذمر والغضـب؟! ماذا تفعلين بزوجـك وبنفسـك وانت تهدميـن تلك المـودة، التي جعلهـا الله فيكما. رجتها أم ياسر بكل عطفها، تعالي نعالـج تلك المشكلات معـاً، واذا جاء زوجك المرهق مـن درسه استقبليه بأفضل ما يكون وبأحسن هندام، مبتسمـة بشوشة، وقد هَيأتِ لـه كل ما تستطيعين من وسائل الراحة، وهذا أمر يسير.

كل ذلـك وسـواه تقوله أم ياسر بكل صـدق، فهي لا تجده صعبـا ابداً، تراه كفعل عفوي لا يحتاج إلى جهد، حب يفيض من مودة متأصلة. اما هي فتبحث دائما عما هو اكثر، فالسيّد الطف من ان يطلب وارق من ان يثقل عليها، ليته يطلب منها مـا هو صعـب، تريد ان تكون واثقة مـن دخولها ذلك الباب، البـاب الذي فتحه الله لخاصة اوليائه، ويقلقها حرمانها من ان تكون امرأة مجاهدة، تتساءل دائما:

- هل انا حسنة التبعل؟.

وحين سالته هدأ قلقها وهي ترى ذلك الود في عينيه وهو يقول:

- أنت أكثر من ذلك بكثير يا ابنة الزهراء



ذلك اللقب الذي يلامس شغـاف قلبها، لطالما تردد في رسائلـه وعلى لسانه، تمسح أم ياسر دمعاً وهي تريد للطريق ان يقصر، شعرت انها غابت عنه أكثر مما تستطيع.

استحضار النجف

عـادت اليـه، وعـادت اليهـا حياتها التـي تريـد، سريعة عجولـة ناشطة، تنغمسـ في هديرهـا، سعيـدة مستبشرة، وحيـث يكون السيّـد يكثر العمل وتزدحم المهـام، التطلعات والامـال، ويستثمر الوقت حتى آخر دقائق اليوم الذي يقصر مهما طال لكثرة المطلوب منه، ويطول لكثرة الانتاج فيه.

تعيد ترتيب هذا الجديد، تعيد إلى روحها الانتظام، ترتب المـكان، تؤهّلـه بأسرع مـا تستطيع وبافضل مـا هو ممكن، ليكون كما في النجف، ورفيقة دربها في العراق عادت ايضاً، وسكنـت مع اهلهـا على مقربـة، في طريق صيـدا القديمة. واستعادت معها بعض النجف في الكتاب، ويستعيدان النجف الاشـرف ومعه ارتجافة القلـب تلك كلما ذكر، ومـا أكثر ما كان يُذكر! لا تكاد تخلو جلسة من ذكره، ان لم يكن باللسان، فبالقلب، بالصور التـي تتربّع على صفحة الذهن، عن مقام الامير، عن طرقاتها والبيوت.



- «كـم انت حاضرة يـا اشرف المدن، ولكـم هو موجع غيابك، اكاد اشم رائحة ترابك رغم المسافة، ترابك

الذي لامسته بركة امير المؤمنين ومن جاوره فطبت، وطـاب العيشـ فيك، وكل هـذا الـذي كان وانا فيك، لأرحل عنك وانت فيّ».

الحديث عن النجف واخبارها يتواصل، والنجف تتعرض لضغـوط متزايـدة. تصلهـا الاخبـار الحزينـة، اذ يـزداد الضغـط على تلاميـذ السيّد عباسـ بشكل خاصـ، اعتقال ثم نفـي، وتشتت ذلك الجمع الذي كان فـي حاضنة النجف القدسيّة، منهم من جـاء إلى السيّد زائراً، ومنهم من ذهب السيّد لزيارته. تسمع من السيّد اخبار النجف، وتستعيد معه ومـع رفيقتها ذكريات لهـا وقعها الخاصـ، كان لزاماً عليها ان تستعيدهـا، ليسـ كذكرى فحسب، بل كدافـع للاستمرار واستعادة ما امكن منها.

بعد عودتها بايام، ومـا ان استقر بها السكن في الشياح، حتى بدأت بتنظيـم دارها ووقتها، اعـدت لدفاترها والكتب مكانـا في الصـدارة. والسيّـد يفكر في طلابـه، وهي تفكر فـي البدء من جديـد. كلاهما يريد وصل مـا انقطع بالحاح شديـد. اتفقت مـع أم زهراء علـى استعـادت الدروس عند السيّـد عباس، وفسـح لهما السيّد من وقتـه كما هي عادته، سعيداً بنشاطهما وبالعودة، وبالقدرة على المتابعة اللجوجة، والذهـن المنفتـح، ومن حيث توقفتا أكملتـا. وتابعت هي مع السيّـد شؤونـه وشجونـه، وبالخصوصـ همـه وحزنـه على طلابـه، ووقتهـم الـذي يضيـع، وحاجتهم اليه والـى الوقت



الذي يجب ان يستثمر، فلا احد يعلم كم سيطول الوقت حتى تعـود النجف إلى سابق عهدها ليعـودوا اليها، كان لا بد من جمعهم، واسترجاع بعض ما كانوا فيه من جديد.

لا بـد من التفكيـر بانشاء حوزة، كما فـي النجف، حوزة تجمع طلاب السيّد، ويستعاد فيها اجواء النجف، وكان القرار حاسماً كخيار لا بد منـه. وبدأ التفكير في المكان، وطرحت الاحتمـالات، وبـدأت المفاضلة. في الجنـوب الوضع الامني فيه لم يكن مناسبـاً، ولبيروت مشاكلهـا الامنية والسياسية مما جعلتها مستبعـدة ايضاً، وحدها بعلبك وما تتسم به من هـدوء، واستقرار، جعلها المرشحـة الوحيدة، ولم يكن امام الانتقال إلـى بعلبك مشكلات ذات قيمـة لام ياسر، فبعلبك ليست بعيدة عن النبي شيت، حيث اهلها ومسقط راسها.

جميـل ان يكـون بعض النجف فـي بعلبك، لقـد اسعدها الوصـول إلى هـذا القـرار، وكان على السيّـد ان يجد مكاناً للحـوزة اولاً. فالسكـن ليس بالامـر المهم لا عنـد أم ياسر ولا عنـد السيّد عباس، فحيث سيسكـن العقل يسكن الجسد بقلبه والجـوارح، وحيث يكون الطريق إلـى الله يكون الدار، أمـا كانت سعيدة فـي النجف؟ فالغربة هـي غربة الروح في نظر أم ياسر، الغربة في البعد عن الله وعن ما اراده لخلقه، الغربـة هي الابتعاد عن الطريق المؤديـة اليه، هذا ما كانت تـراه بغايـة الوضوح. لقـد عاشت سنـيّ النجف كمـا يعيش الانسـان فـي وطنه، بل ان في تلـك السنين ما هـو أكثر من



ذلك، لقد بكت حين غادرتها، كما تبكي الاوطان.

ستحمل أم ياسر وطنها معها اينما ذهبت، وستضع قدمها على اقـرب الطرق إلى باريها اينما حلت، وطنها هو الطريق اليـه، وطن فيـه اميرها السيّـد عباس، ليكـن بعلبك، ليكن في آخـر الدنيا، ليكن اينما كان، ستشـم فيه رائحة الوطن، حيث راحـة الاقتراب، وحيث النور الذي يزداد مع كل خطوة اقتـراب من الله المصدر المطلق، ومن المصادر الموصولة بـه، واهل العصمة الهادين المهديين ، لم تكن ترى أم ياسر سوى ذلك، تراه بوضوح لا لبس فيه.

وهيـأ الله للسيد مدرسة في بعلبـك تابعة لمسجد الإمام علـي عليه السلام وموقوفـة لـه. واجهـت السيّـد بعض المشاكل والصعـاب حيـن اراد جعلهـا حـوزة، فقـد كانـت المدرسة مشغولـة، مستثمـرة وقد وضعـت عليها اليد بغيـر حق. ولم يتجـاوب شاغل هذا الوقف، وبقي مصراً على اغتصابه لها، دون إذن أو وجه حق.



تتابـع أم ياسـر خطوات السيّـد بما استطاعـت من عون، وحين تغلق الابواب، ويضيق الأفق امام الحلول، ترفع أم ياسر يدهـا إلـى السمـاء، معتمدة علـى تجربة طويلة فـي الدعاء، اوصلتهـا لقناعـة لا يصاحبها شـك، ان الله لايترك مقاصد الساعيـن اليـه دون عون وتسديـد، وليس امـام السالك اليه درب مغلـق، وان بـدا الامـر مستحيلاً كما هو حـال المدرسة الوقف. والسيّد يعمل بلا يأس ولا انقطاع، لتحويلها إلى حوزة،

فتدخل السيّد موسى الصدر مشجعاً وداعماً، وكذلك العشائر ووجهاؤهـا، وفتح الله ابوابها للسيد عباس، حافظاً عنده كل الجهد المبذول، لتكون اول حوزة بتلك المواصفات في لبنان.

كانت خطوة كبيرة، وفتح جديد في الطريق، قرب الباب الذي اغلق على النجف، الدرب يمتد من جديد، يحمل العبق ذاته والنور ذاته. وتشد أم ياسر الرحال إلى بعلبك. بلدة كبيرة لم تسكنها من قبل. عشرات الاسئلة والكثير من الهواجس تتدافع إلى الذهن، فتدفعها عنها أم ياسر، لا هم وهي تعلم انها في الطريق، والطريق إلى الله وطن، لا هم وهي في صحبة السيّد والى جانبه.

سكنت في «دورس» في بعلبك واعادت ترتيب كل شيء، بسرعة ومرونة، معتمدة على مهارتها الفائقة في ادارة تلك الامكانات البسيطة والمتواضعة جداً، تعيد ترتيب كل شيء، وتعيد اليه النظام من جديد، وتتلفت في هذا المحيط الذي تراه لأول مرة.



في مكان سكناها الجديد يسكن أيضاً «الشيخ حسين كوراني»، وهو احد معارف زوجها، وشيخ ذو علم ومعرفة، وهذا هو المهم بالنسبة لها، ومن ضمن الاعداد للسكن الجديد، ومن ضمن تنظيم الوقت، وجدولة النهار، سألت السيّد عن امكانية الاستفادة من علم الشيخ لمتابعة التحصيل العلمي. يبتسم السيّد ويهيئ لها ما ارادت، بالاتفاق مع الشيخ الجار، ومن خلال برنامج درس في مواعيد محددة في أكثر ايام

الاسبــوع. وعــادت أم ياســر للدروس هي ورفيقتهــا القديمة (أم زهــراء) التــي سكنت في بعلبك مــع وزوجها الذي يتابع مــع السيّد شؤون الحوزة وشجونهــا، وتنتظم دروس أم ياسر ورفيقتهــا بين الشيــخ والسيّد عباس، ويعــود النجف موطناً جديــداً في بعلبك تراه أم ياسر في الدروس وفي المراجعات والحفظ والتحضيــر، وساعات المباحثــة والنقاش، والسيّد بمعرفته يغطي اي نقص.



المهمة الجليلة

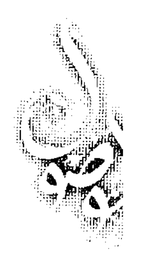
يضيق الوقت لكثرة المطلوب منه، وتعيد أم ياسر تنظيمه ليتسع. وما ان استقرت في وضع المتابعة للدروس، حتى بدأ التفكير في ذلك الذي ارادته لنفسها واقرته عملاً ومهمة جليلة لن تتخلى عنها، أو تقصّر فيها، وهي الاهتمام بالناس، الاهتمام بعيال الله واقرب الطرق اليه، تحرّضها كلمات السيّد وذكريات بنت الهدى، لتسارع دون انتظار، في مجتمع جديد لا تعرف عنه الا القليل. عيال الله اينما كانوا هم عياله واحباؤه، ليس عليها سوى ان تبدأ، والذي تحتاجه لتلك المهمة الجليلة موجود لديها، انه حبها الصادق لهم، بسامتها، طيبتها، والخلق الكريم، ما تعرفه، وما لديها من علوم، جمعت كل ذلك وانطلقت.

منذ الايام الاولى وهي تنفتح على المحيط، وتتفتح الابواب لها، وما عندها هو منحة من الله، ما كانت تقوله بنت الهدى، وما يقوله معارفها ويردده السيّد عن قدرتها على التأثير. هم يرونه ميزة فيها، وهي تراه امراً طبيعياً لا تتعمده، ان كان كذلك فهي سعيدة به، تعينها تلك القدرة التي يتحدثون



عنها، لتكون وسيلتها لخدمة عيال الله في تبليغهم رسالة فيها الخيـر كله، مستغلة مـا عندها من علوم ومعرفـة، ومن هذا الكـم الكبير من الحب والمبالاة، فالناس هنا احوج ما يكون، وتـرى النقص هائـلاً وعميماً، في معرفـة الاسلام، اخلاقه وعلومه الدينية، نقص حتى في ادارة المتوافر من الامكانات، في التنظيم وفـي استثمار الوقت، وادارة الذات ايضا. هي لا تلـوم من هم في مثل هـذا، ولا تجدهم مقصرين، وتجد لهم الاعذار، وتراهـم قاصرين تظافرت عليهم الظروف، ولكنها لـن تغفر لنفسها تركهـم، ستلوم نفسها ان لم تمنحهم كل ما تستطيع، وان شقّ عليها ذلك.

هكذا يفعـل الرجال، من السيّد عباسـ إلى طلابه، فهم يقومـون بما عليهم من ارشاد ورعاية ومتابعة، والنساء اولى واكثـر حاجة، المـرأة في رأيهـا اهم واولى، فهـي المربية، وهـي الام، صانعـة الجيل، والمؤثرة الاولـى، لكونها في اهم المواقـع، فالمنـزل هو الموقـع الأوّل والنواة، هـذا ما كانت تـردده أم ياسر على نفسها وعلى سواها، وتلك قناعتها التي تعمل عليها، وما عملها فـي السنوات الأخيرة على التنوع في الثقافة الا من اجل ذلك.



السيّـد وطلابـه يحاضرون فـي الجوامـع والحسينيات، يستغلون كل مناسبة، وهي ورفيقتها ستقومان بذلك فلديهما مـن التحصيل العلمي مـا يكفي، ومن علـوم ومعارف آخرى يحتاجها الناس.

وانتظم الامر، بمساعدة السيّد عباس وبتشجيع منه، كان يــوزع طلابه على القرى، في مواعيد يقوم بإعدادها مسبقاً، ومعهم كانت أم ياسر ورفيقتها.

اوصلتهم السيارة المستأجرة، أم زهراء كان موعدها في «حارة الفيكاني» وام ياسر إلى مقام في قرية «علي النهري».

لديها الكثير من الكلام لتقوله أم ياسر، لديها الكثير من الحــب لتعطيه، تريد لهــن افضل ما عندهــا، تريد ان يرين ما تراه، في تلـك العلاقة مع الله، في ذلك التواصل المؤثر، الــذي تطيــب معه الاوقــات، وتأنس بــه الارواح، فــي التوجه الكلي ومتعه العبــادة، في الصلاة والدعــاء وقراءة القرآن، في الاحــكام التي فيها خير الدنيا مضافــاً إلى خير الآخرة، في العقيدة، في سيرة الرسول واهل بيته، في كل ذاك الحب والعظمة الباهرة في سيرة الزهراء وابيها وبعلها وبنيها.

تريد ان تحدثهن كم تستطيع المرأة ان تفعل، وهي المتربعة علــى عرش اهم الاماكــن واساس المجتمعــات، حيث الصلاح منهــا ينتشر كمــا ينتشر الطيب، تريد لهــن ان يعرفن الاسلام كما تعرفــه هي، تريــد ان تحدثهن في الاخلاق، فــي السياسة فــي الادارة والاجتمــاع. قــرأت كثيــراً، وتعلمت كثيــراً، سمعت واختبرت، وهي الآن تتدفق حماساً وحباً لتكون مبلغه، تريد بكل اخلاصــ ان تكون مفيدة، قادرة علــى ان تترك اثراً يساهم في التغيير الجذري العميق، يُزهق كل هذا الذي تراه من باطل هنا وهنــاك، ان يقترب الناس أكثــر باتجاه الحق، ان يتركوا الكثير



من هــذا الســوء الذي تزخــر به المجتمعــات، وتلــك العادات الغريبة عن الدين، تريد ان تفتح نافذة، ثقباً في هذا الجدار.

حملــت كل ذلــك أم ياسر وخرجــت به إلــى الناس، كان الحضــور قليلاً، عشــرون امــرأة تقريباً، اغلبهــن جئن حباً للاستطلاع، لمشاهدة المــرأة الشيخة، المرأة التي خرجت عن المألــوف، وبعضهن جئن ضاحــكات، وبهدف السخرية واضاعة الوقت، لكن أم ياسر جاءت مشرّعة القلب، تحدثت بما لديها، وبعــد الكلمات الاولى، صمــت الحضور وانصت، وقالــت أم ياسر ما تريد قوله في تلك القرية، بكل اخلاصها والود قالت ما تريد، وخرجت راضية سعيدة وان قل الحضور.

وجــاءت السيارة المستأجرة لتأخذهــم إلى النبي شيت، إلى منزل ذويها ذهب الجميع، وتلك كانت خاتمة العمل، بعد انجاز مهام التبليغ، يقضون ساعة من نهار في ذلك الترحاب والضيافة الكريمة، ويلح الاهل على استضافة هذا الجمع من المبلغيــن ومعهم السيّــد عباس. سعيدة بمــا قدمت هي وام زهراء كل في قرية، يتحدثون عن تلك التجربة وما اعتراها. كانوا جميعاً سعداء رغم المشاق وقلة الحضور وعلى راسهم السيّد عباس الذي شجع واكثر من الثناء الجميل.



شعــرت أم ياســر، انها اكثرهم سعــادة وانساً، مشقة في عين الله وخاتمة في منزل حبيب، عند خير اهل واجمل ناس، اهــل احسنوا استقبال الوافدين كمــا احسنوا الابوة والأخوة والأمومــة من قبل. كما كانوا لها كانــوا للضيوف. اما السيّد

عباس فهو الأقرب لهم والأحب اليهم بين كل خلق الله، اقرب لهم من فلذات اكبادهم، وقد خبر هذا الحب حتى اعتاد، منذ القديم كان وما يزال ابن كبير لهم، ينافسون ابواه في قلبه مذ كان صغيراً، يظهر ذلك في حركته وكلامه، ويترك ذلك اثر جميلاً في وجدان أم ياسر.

تحدثت هي ورفيقتها عن التجربة الاولى، تحاولان الاستفادة منها قد المستطاع، واستعدتا للخطوة التالية، كانت أم ياسر أكثر حماساً وتوقداً من المرة السابقة، والحضور أكثر تفاعلاً. واكثر عدداً، والذي اسعدها ان اغلب النساء اللواتي كن في المرة السابقة، حضرن ايضاً، تكبدن عناء المجيء مرة اخرى، ليكن حاضرات معها للمرة الثانية، وبصحبتهن عدد جديد ووجوه جديدة، عدد اكبر بكثير من المرة السابقة، كان هذا مؤشراً جميلاً، غاية في اللطف، تلك كانت شهادة عزيزة وحافزا اضافيا بالنسبة لام ياسر.

نظرت إلى الوجوه، لكم هي اليفة وحميمة هذه الوجوه، ببسم الله والصلاة على محمد وآل محمد ابتسمت، وتدفقت حبا وصدقاً، تدفقت وكأن قلبها هو الذي يتحدث. حدثتهن عن عظمة الاسلام، عن مكانهن ودورهن، وعن ربهن الرؤوف الذي يرى ويسمع، عن حبه لهن، وعن اثر الاقتراب منه، وعن.. وعن.. كان حبا يتدفق صدقاً، وكأنها لم تكن كلمات، بل فعل حياة جعل الحضور ينصت، والنساء كأن بهن ذهول من هذا الجديد الذي يسمعنه للمرة الاولى، اصغين



وتأثرن حتى ترقرق الدمع في بعض العيون.

وتحلقن حولها حين انهت حديثها، يسألنها ولديهن الكثير، لكم هي تحب هذا الجمع، كانت لهن بكلها حتى نسيت الوقت، نظرت إلى ساعتها:

- اف.. تأخرت...

اعتذرت منهن، ومن الذين ينتظرونها في سيارة الاجرة. واقرت ان عليها منحهن المزيد من الوقت.

وتوالت الايام وازداد عدد النسوة، وتفاعل الحضور، وبعد المحاضرة صارت تجتمع النسوة بين سؤال واعراب عن محبة، وبعضهن يسألن عن امكانية اللقاء في زمن اقرب، يردن للقاء ان يصبح أكثر من مرة في الاسبوع الواحد، وام ياسر بينهن تزداد تفاعلا، وتزداد مودة.

وتزدحم المجالس، في كل قرية تأتي النساء من القرى المجاورة، ويطالبنها البعيدات بزيارة، تختار النساء اوسع البيوت لاستقبال أم ياسر، اذ لم تكن النوادي الحسينية موجودة في كل القرى، والعدد يتضاعف، كل هذا جعل أم ياسر تزداد تأثرا، فهؤلاء النسوة عطشات، لم يكن مقصرات، انما هو قصور في مجتمعات قل فيها التبليغ والتعليم، فالتوجيه والعلم نادر هنا، وهو على ندرته كان مخصصا للرجال، وحرمت من ابسطه النساء، بقين بعيدات كل البعد عنه، فتمسكن بالقشور وتوافه الامور، في وقت قل استثمار فراغه، جهل مفروض في واقع لم يكن فيه المقصرات.



فرح الساحة وأحزانها

تفتــح قلــب أم ياســر، واشتــد تعاطفهــا بعد كل مــا رأت وسمعت. فضاعفت من جهدهــا على ضيق الوقت، واستغلت كل مناسبــه، وفي كل مكان، واقبلـت النساء عليها، يحضرن بشــكل مكثف حيث تكون، ويعــدّدن لذلك عدّته، من استعارة الكراسي وتوسيع المكان وترتيبه ليتناسب مع الحشد.

لمســت في تلــك الاجتماعات ما كان يقــال عن شخصها وقدرتها على التأثير، اقرت بذلك واسعدها. فتلك منحه من الله ولها غاياتها، منحه تساعدها على العطاء.

تستغــرب ردّات الفعــل تلــك، وذلك التأثــر والتعلق الذي تبديــه النسوة، ولا تعلــم من اين جاء، ربما هــي ابتسامتها، أو هــذا الحب الصادق الذي تبديه، ومــا يصنعه في ملامح وجهها ونبرة صوتها، ربما لانها تقول ما هي مقتنعة به، تقول مــا خبرته وجربته، فهي ما تحدثت عــن امر لم تمارسه عن قناعــة، ما تقوله يخرج من جوارحها صادقــاً مقنعاً، مشبعاً بــود حقيقي، ولا تريــد لذلك أجــراً، حتى المديــح لا تحبه، ولا الاهتمــام المبالغ فيه، هي لا تنتظــر حتى الشكر، الشكر

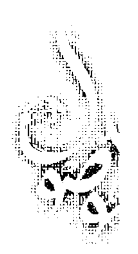


الحقيقـي الـذي تريده أم ياسـر ويفرحها هو ان تـرى اثراً، تغييـراً وان بدا طفيفـاً يسعدها لأنها تعلم انـه لابد سيكبر. هي واثقـه ان فعلها سيكبر، فهـو لله، خالصاً لوجه الكريم، وما كان لله ينمو.

وتلـد أم ياسـر طفلتهـا ليصبـح اولادهـا ثلاثـة، وبتول الجديـدة، أخذت من أم ياسر وقتاً جديداً، لكنها لم تتوقف، وان ضاق الوقت، وازدحمت به الاولويات.

وكان لا بـد للاحزان ان تدخل إلـى ساحة ذلك النشاط، لتضعـف الحالـة الجديدة المتفاعلـة، الواضحـة النمو وان يتزاحـم على اذيتهـا المتضررون من التغييـر الذي تحدثه في تلـك المجتمعات، حالـة اخافت من له الامـر والسلطة، ومـن له اطمـاع لطالما كان قـادرا علـى استثمارها في تلك البيئة، اخافه هذا التغيير المتسارع النامي، في تلك الحركة الاسلامية النشيطة.

قروا اجهاضها، وسعوا إلى ذلك سعيهم، باختطاف السيّد موسـى الصـدر، عميد ذلـك النشاط في لبنـان والمنطقة، وكان لاختطافـه شديد الاثر، دفع بالكثير من الالام إلى قلب أم ياسـر والـى محيطها كلـه، فالساحة هي احـوج ما تكون لحضوره الفذ.



لم يفقد الامل محبوه ومناصروه، وكان لا بد لهم من الرد علـى اختطافه، وافضل الرد فـي رأي أم ياسر هو بمضاعفة

الجهـد، وبمزيد من العمـل الدؤوب في اكمـال طريق شقّها السيّد المغيب بنفسه، وبجهوده المباركة الفذة، جهود كثيفة موازية للعمل على عودته بكل الوسائل.

وتلهج أم ياسـر كل يوم بالدعاء، فللسيـد موسى الصدر عظيم الاثر على حياة أم ياسر والسيّد عباس.

ومع الايـام يزداد عدد المجتمعين اليهـم، وتتفتح ابواب القرى القريبـة والبعيدة. وتظهر حاجة النـاس إلى التبليغ، والنساء منهم على وجه الخصوص، حاجة اكبر من قدرة أم ياسر وام زهراء.

فهما اثنتان فقط امام كل تلك الحاجة المتزايدة، والبلاد واسعة والقرى عديدة، والناس تسمع وتتأثر وتريد المزيد.

السيّـد ليس وحـده، يساعده طلابه، ويعملـون أيضاً على تدريـس جيل جديد، واعـداده ليقوم بالمهمـة الجليلة تلك، بعضهم اصبح قادراً على التبليغ، وهو ما زال يواصل الدراسة في الحوزة.

لمـاذا لا تكـون هناك حـوزة للنساء اذاً، حـوزة تعد فيها المبلغـات، يتفقهن فـي الدين والعقائـد والسيرة والاخلاق، تدّرس فيهـا أم ياسـر وام زهـراء، تعلمهـم أم ياسر كل ما تعـرف، تدرسهم كمـا درست، هـي ورفيقتهـا قادرتان على القيـام بتلك المهمة، ولم تتردد في عرض الامر على السيّد، فاقتنع تماما، دعم ووعد بالتنفيذ بأسرع وقت.



في ذلك الوقت وقبله بقليل، كانت اخبار الثورة في ايران تتوالـى، ويتواصـل الفـرح القـادم منها، وام ياسـر في قلب ذلك الفرح، ومن أكثر المهتمين والمتابعين، لم ينقطع يوماً التواصل بيـن السيّد عباس والسيّد محمـد باقر الصدر في العـراق، المحب والداعم للثورة في ايران، يقول لهم: «ذوبوا فـي الإمـام الخميني كما ذاب هـو في الاسـلام». وتتعلق أم ياسـر بشخصيـة الإمـام الخميني وتتابع كل خبـر أو مقال، خطـاب منـه أو كلام. ياسرها حضـوره الهاشمـي، تقرأ له وتقـرا عنه، وتسأل السيّـد عباس، لتزداد تعلقـاً به، وايماناً بانتصار ثورته التي هي فـي وجدانها مباركة مدعومة بحول مـن الله وقوته، تشارك في الدعاء وفي النداء، في صرخات الله اكبـر التي كانت تتـردد على اسطح المنـازل في الوقت الـذي يحدده الامـام، وفي كل ما تستطيع مـن اساليب دعم وولاء، وتشعر بالانتماء لهـذا الفكر الثوري، المؤمن بالقدرة على التغيير، تشعر بانها جزء من تلك الثورة، وتحمل لواءها اينما حلت.

تنتصر الثـورة، ينتصر القلـب، ويمتد الفـرح إلى مكان جديـد، ويتحقق الحلم الـذي بدا في الماضـي عصياً يشبه المستحيـل، يعود دين محمد ليحكـم في دولة عزيزة قادرة. بقيادة رجل فذ من ال الرسول، امام يطاع ويفتدى بالروح.



يسافـر الشيخ كوراني، استاذها الساكن في نفس المبنى إلـى ايـران، ويتحقـق حلمها الثانـي، ويصبح منـزل الشيخ

حــوزة للنساء، قاعــة للتدريس، وجناح داخلــي لحوزة تشبه حــوزة الرجال، لمــن اردن التفــرغ لطلب العلــم والاستعداد للتبليغ، ولان منزل أم ياسر ملاصق للحوزة تولت هي العناية بطالبــات القسم الداخلي، كما تعتنــي بأولادها، لم يكن في القسم الداخلي عند افتتاحه سوى طالبتين، اصبحتا ابنتين جديدتين لام ياسر، بكل ما تعني الامومة من عطف ورعايه، أم واستاذة وصديقــة. وانتظمت الدروس، بحضور كامل لام ياسر وام زهراء، تعينها رفيقتها طول الوقت وفي كل الشؤون. ويزداد عدد الطالبات، ويزداد الفرح القادم من هذا الانجاز الــذي تعتبره أم ياسر كبيراً جــداً، كما هي احلامها الكبيرة جــداً، احلام سعت بلا توقــف على جرها إلــى واقع وان بدا صعبــاً أو محالا لسواها، بلا يأســ أو قنوط، اذ ترى ربها في كل خطوة داعما ونصيرا .

وتمــر الايام وتلد أم ياسر طفلها الرابع كميل، اربعة أولاد وام ياســر تواصل الجهــود وتبذل كل مــا بالمستطاع، وتتابع شــؤون السيّد عباس بلا اي تقصير، ويعجب من يراها، وهي كمــا هي، وتجــد دائماً لكل جديــد وقته، معارفهــا، الاقارب والمقربــون، يقفــون فــي ذهــول امــام كل هــذا، يتساءلون: الا تتعــب؟! من ايــن تأتي بكل هــذا الوقت؟ وكيــف تستطيع الاحتمــال؟ وليس هنــاك سوى جملة واحــدة تظل ترددها أم ياسر كإجابة واضحة كافية على كل تلك الاسئلة.

- الله بعين.



حتى السيّد عباس يعجب لذلك، ويشفق عليها، يتعاطف بشدة، يحاول ما استطاع ان يخفف عنها، لانها ارق من كل ذاك التعب، يعينها ما استطاع ولا يكف عن الدعاء لها، وقبل الدعاء يشكر لله على وجودها إلى جانبه.

- ام ياسر نعمة من نعم الله.

هي تحميه، وتبعد عنه الهموم ما استطاعت، تخفف عنه، وتؤّمن له وسائل الراحة على اكمل وجه، فهي تعرف ما يحب وما يكره وما يحتاج دون ان يطلب، تتابع كل شؤونه وتعرف وقته الضيق ومهامه الجليلة، وترعاه بكل حنانها واللطف.

- أنت أم وزوجة

يمتد جسر التواصل بين السيّد عباس والثورة الاسلامية في ايران، في تواصل يقوى يوماً بعد يوم، وتمتد يد المساعدة من هذه الثورة الفتيه الام، ويذهب السيّد عباس إلى هناك، ويحصل على رعاية من الإمام وتأييد ودعم، ويأتي بعزم جديد.

بعد مضي ما يقارب العام على انتصار الثورة وكل ذلك الفرح الذي رافقها وتلاها، جاءت تلك الغيمة الكبيرة من الاسى واللوعة، حزن لم تعرف له أم ياسر مثيلاً مذ عرفت الدنيا.



مذ تركت العراق وهي تتابع اخباره، وفي قلبها هذا التعلق العجيب بالنجف الاشرف وذكرياته، وتسمع بما يحدث من

قمـع ومضايقات، قمع ازدادت وتيرته مع انتصار الثورة التي ازعجـت النظام هناك، قمع اصبح سواده حالكا، يرزح تحته كل مؤيـد ومحب لتلك الثورة، واولهم سماحة السيّد الصدر، وقلبهـا يخفـق حبا وتعاطفا، لكنهـا ابدا لم تكـن تتوقع ابدا وصـول الامر إلى مـكان فيه تجـاوز كل الحـدود، ان يحجز الإمـام في منزلـه، وان ينقطع عن كامل الدنيـا، ثم في ليلة سـوداء هـي ونهارها، يصدم العالم كله بهـول ما اقدم عليه النظام.

ان يقتل الإمـام الصدر واخته بنت الهـدى بعد الاعتقال والتعذيـب، فتلك كانـت صدمة كبرى، مذهلـة في فجيعتها، تكاد لا تصدّق.

- «اه ايها السيّد الجليـل.. اه ايها الإمام الفذ.. لكم هو موجع مصابك.. وآه سيدتي.. الحاكم المجنون قسوة وبطشـاً يعـرف من انـت.. يعرف نور قلبـك.. خطف بصـره.. أعمـاه.. آه سيدتـي ومعلمتـي.. اي شمس تغيب..»



وغالبـت الاحـزان أم ياسر حتـى كادت تغلبها، ومرضت تأثرا، كان غماً عجيباً واسى بلا حدود.

استعانـت بـالله علـى احزانـه، لن يكـون الـرد بالحزن والذهـول امام هـذا المصـاب الجليل، وقامت مـن جديد، قامت بأحزانها، محفوظ هو والاسى في زاوية القلب محاطا

بذكرياتهـا عن تلك العائلة الفريدة، مـع كل ما تحمل لها أم ياسـر من جميل، بجانـب الحزن والقلق علـى السيّد موسى الصدر الذي ظـل مصيره غامضا، عامان بين اختفاء الأوّل واستشهـاد الثانـي، عامان وبينهما انتصـار الثورة واشتداد العود في العمل الجهادي في ايران، وكيف تقاطرت الاحداث متسارعـة بين الحـزن والفرح، كل هـذا زاد أم ياسر معرفة وقناعـة بان تضعه في عيـن الله، ان تضع الفرح والحزن في مـكان واحـد. اليس كله لله؟ منه وله وبيـن يديه، حين يكون كذلـك يتصاغـر الفـارق، لا الحـزن يعيق، ولا الفـرح يغوي ويدعـو للوقوف، هذه هي الدنيـا والدرب مفتوحة لمن يخطو ويستمر، في الفـرح يخطو وفي الحزن يخطو، وهي تريد ان تصل، وعليها ان تسلك اقرب الطرق واوصلها.



أثر الغياب الخطير

تحـث أم ياسر الخطى، وترفع مـن وتيرة العمل والجهد، عطـاء ومحبة في تواصل لا ينقطع، وكانـه مربوط بأنفاسها ودقات القلب، كل شيء يخفق باسم باريها وخالقها الرحمن الرحيـم، تتقرب اليـه في كل شأنها، فـي كل حركة وسكون، فـي كل قيام وقعـود. تضع كل ذلك في ميزان واحد، هل هذا يرضيه؟ فان كان الجـواب نعم فعلت، مهما كانت الصعاب، وان كان الجـواب لا، وان لـم تكن حاسمـة توقفت، يكفي ان يكـون مكروها فهي تاركة لـه، دون عناء ودون تردد. هذا هو ميزانهـا وعليـه كانت تسيـر، ولا ترى في ذلـك أم ياسر اية مشقـة، وتعجب كيف يستطيـع بشر ان يعصيـه، أو لا يطلب رضاه، في رأي أم ياسر ان ما يحتاج إلى مشقة هو المعصية، المعصيـة هي التي تحتاج إلى جـرأة وتجرؤ عظيم ومخيف، كيـف يستطيعون معصيته واي مرارة ستتبع ذلك؟! ما اطيب الجهـد حين يكون لـه، وما الذ المشقة فـي الطريق اليه، ما المشقة والألم سوى خطوة كبيرة اليه.

يتسـارع بعد ذلك كل شـيء، العمل يكبـر، وكل ما اسسه

السيّـد، ومـا اسّسته هي ينمو ويأخذ شـكلاً واضحاً، يُشاهد ويُـرى. بدأ عدد مـن طالباتها بالخروج لتبليـغ الناس، وآثار مـا صنعـت واضحة تنمو، فيمـا تراه من حولهـا، في انتشار الحجـاب، في السلـوك والصلاة، وفي ارتيـاد الجوامع، في هذا الالتفاف حول الثـورة وقائدها، في هذا العدد المتزايد من المريدين والمحبين، كل ذلك كان اكبر من الحلم.

وفي السكن الجديـد كان مكان الحوزة اوسع، وسكنت أم زهراء معها فـي نفس المبنى، سكنت هي في الطابق الاخير مع عائلتها، ورفيقتها في الطابق الثاني، والطابق الأوّل اصبح حـوزة للنساء، وعدد الطالبات في تزايد، ويأتين من مناطق بعيدة. وام ياسر أم لهن، ومعها تلك الرفيقة الدائمة، العمل يكبـر والوقت يضيق، النشاط يمتـد، نشاطها ونشاط السيّد عباس، ويكثر الضيوف وتزداد المهمات.

وتكـرر سفر السيّد إلى ايران، غيـر ان سفرة منها كانت طويلة، اطـول بكثير مما اعتادت، سفرة كانت دهرا بالنسبة إلـى أم ياسر، شكّلت تلك السفرة مفصلاً في غاية الوضوح، فـي زمنها الطويل ومكانهـا الخطير. السيّـد ليس في ايران فحسـب، انـه هناك في جبهـات القتال، تطـوع على الجبهة الايرانية العراقية، حيث يشتد الخطر إلى اقصى الحدود.



لقد اخذ ذلك الغياب الخطير من أم ياسر مأخذاً صعباً، واوقفها في مـكان لم تر نفسها فيه من قبل، هي لا تشك في صحـة ما يفعـل، ولا تشك لحظة في قرب ذلـك السلوك من

الله، فما بالها تظل تتساءل، وكلما خطر على بالها استشهاده هنـاك توقفت؟. الا تريد لـه خاتمة عظيمة مثـل تلك، كيف وهـو حبيبها بل احب الخلق اليهـا، فكيف لا تريد؟ انها تريد لاولادها ان يفوزوا بتلك الخاتمة، وهي تريد له افضل خاتمة ممكنـه على وجـه هذه الارض. فهـو أكثر الخلـق استحقاقاً لمثل تلك الجائزة العظيمة، انه اولى بذلك المقام، لكن اين سيكون مكانها؟ تريـد له الشهادة، انها تريد له ذلك المقام بـلا شك. بل هي لا تريد لـه خاتمة ادنى من ذلـك، ولكنها بـكل وضوح لا تريد فراقـه، ليس لا تريد فحسـب، بل هي لا تستطيـع، بكل الوضـوح لا تستطيع، كلما نظـرت إلى نفسها وجدت ذلك، واضحاً حاسماً بلا بديل ولا استثناء.

انهـا لصيقه به، جزء منه، بل هـو كلها، منه وفيه روحها والجسـد، كمـا لا ينفصل الجـزء عن الكل، كمـا لا ينفصل القلب عن الراسـ، والرأس عن الجسد. سيتداعى هذا الكل عند الانفصال.

كانت تفكر في ذلك عند المواقف الصعبة والخطيرة، في العراق مثلا، أو كلما غاب، أو تعرّض للخطر، ولكنها في هذا الغيـاب الطويل جدا، الخطير جـدا، قد أُلزمت على الوقوف عنـده واستيضـاح تلـك المشكلة. فـي السابـق كانت تهرب من هـذا الموقف، اما في هذا الغيـاب فقد ألزمت، توقفت، ونظرت مطولاً، واجهـت الامر بكامل تفاصيله، قلبت الاوجه والاحتمالات، وحاولت ان تجد نفسها من دون السيّد عباس،



فلم تجد سوى المحال، ليس انها لا تريد فراقه فحسب، بكل بساطة ليس هذا بالإمكان.

قامــت تدعو ربهــا ان يعيده اليها فقد طالــت المدة، لقد افقدهــا توازنهــا غيابه، غياب طويل مــع الخطر الداهم في قلب المعارك، في فراق اذاب روحها.

ذبلــت أم ياســر فــي الايــام الاخيــرة قبل عودتــه، حتى ابتسامتهــا المشرقــة غابــت هي والــكلام، وصــار الصمت اليهــا أكثــر قرباً. وفقــدت شهيتها على الطعــام. وحين عاد السيّــد وجدها ذابلة، وكأنها على فراش الموت، فرق لحالها ولحالــه، رؤيتهــا علــى هذه الحــال عصــرت قلبــه، وادمت جوارحه، فلازمها حتى قامت، واعادت اليه حياته بصحبتها والنشاط. ليكملا معاً بكل الزخم ما كانا فيه.



الوقت يتسع

تتسارع بعد ذلك الاحداث. وتتسارع الخطى، وتظهر في الافق ملامح جديدة، مختلفة كل الاخلاف، وتنفتح الدنيا على فصل جديد، باجتياح الجيش الاسرائيلي جنوب لبنان، ثم يتمدد في سرعة فائقة إلى بيروت، بلا مقاومة تذكر، رغم وجود السلاح والمسلحين، كأن كل ذلك الوجود المسلّح لم يكن الا وهماً أو وجوداً من ورق، وجود خاوٍ فارغ من الداخل. وتتساءل أم ياسر، ما الذي يملأ الداخل ان لم يمتلئ بالله، وذاك الخواء المغلق يثبت عندها ما كانت تراه، يثبت عندها صحة ما كانت تقوم به، ما كانت مؤمنة به منذ البداية، فراغ سعت أم ياسر على ملئه مذ جاءت إلى لبنان استشعرت وجوده ذلك الفراغ الواضح، وفتحت الابواب لملئه بالرغم من الوقت القصير.



وبدا العمل شاقاً ومكثفاً، في التدريب المتواصل لتلك الثلة التي اجتمعت مع السيّد، ويظل التدريس والتبليغ خطاً متوازياً مع التأهيل العسكري، وتأهيل ارضية اجتماعية يقف عليها هذا البناء الجديد، وام ياسر خير من يقوم بذلك،

وكل مـا قامت به في السنـوات الاخيرة جعل ذلك ممكناً، ما صنعته كان كافيـاً للتأسيس عليه، خيوطهـا الاجتماعية وما حاكتـه كان قـد تغلغـل واصبح له وجـود واضـح، وطالباتها اللواتي زرعت فيهن هذا الجديد المختلف.

لم تعـد أم ياسر وحدها، اصبح لام ياسـر اذرعاً عديدة منتشـرة فاعلة بالرغـم من قلة العدد، ولطالمـا كانت تهتم بالنوعية دون الالتفـات إلى الكم، وقررت ان عليها مضاعفة الجهد.

اشهر طويلة من الجهـد، ليس في الخارج وحده فحسب، بل حتى في الداخل فـي منزلها، اربعة اولاد مع حمل جديد، ظـروف السيّـد، وكونه الاساس في العلاقة مـع الثورة وفي التدريب والحرس الثوري، الاجتماعات والضيوف التي جعلت المنزل خلية نحل، وطلابها وحوزة النساء، درسها وتدريسها، تربية الاولاد، علاقاتها الاجتماعية وحاجة الناس، وهي التي تعتني بكل التفاصيـل، ولكنها أم ياسر، ما كان احد ليصدق هذا الاتقان الذي يشبـه المستحيل. كيف؟؟، كيف تستطيع، الـكل يتساءل مبهوراً حتى السيّـد عباس نفسه، فهو لا يشعر بـأي تقصيـر، رغم توقعه لـه في كل هذا الازدحـام، ويظنه واقعـاً حتماً، وحين لا يجـد تقصيراً يقف مذهـولا، بل يجد اهتماماً متزايـداً، والتفافاً على كل الصعاب، واستيعاباً لكل جديد، حتى في اصغر الامور، والوقت لديها يتسع دائماً.



حين ازداد عدد الضيوف، ظل الطعام شهياً راقياً كما هي

عادته، طعامها المختلف عــن اي طعام، لطالما كان يسألها ماذا تفعلين ليكون طعامك هكذا!؟!.

هــو ينسى امر الطعام ، قد يمر يوم كامل، وهو ينتقل من مــكان إلى مكان، ناسياً انه لم يأكل، وما ان تطأ قدماه ارض داره ويشــم رائحــة طعامها فيشعر بجوع شديــد، قد يعرض عليــه طعــام سواه، فــي عزومــه، أو في غياب طويــل، فيأكل كفرض واجب غيــر محبب، مــن دون ان يسأل عــن نوعيته وماهيته، يقلل من كميته ما استطاع، كانه فاقد لحاسة ذوقه والشم، أو ان تلك الحاسة هي حكر على طعام أم ياسر فقط، حاسة الذوق مكرسة لها وحدها، أو كما كان يصرح:

- ان مفتاح شهيتي عند أم ياسر.

اي شــيء تطبخه أم ياسر مهما كان بسيطاً هو اطيب من كل طعــام الدنيا، فيه شيء مختلف، تضيفه هي وكأنه منقول مــن جوارحهــا، ويشهــد بذلك ضيوفــه والمقربــون، لتتردد المقولة الدائمة:

- نفسها طيب عالاكل.

رغم الفقــر تستطيع تحضير افضل الطعــام، وافضل ما عندها للضيوف، تقدر وتحسب وتدبر، ما جاء ضيف الا وكان الطعــام جيداً ووفيراً وشهياً، هكذا اعتــاد السيّد، ما احتاط خوفا من الاحراج وما شغله ذلك ابداً، باب بيته المفتوح منذ زمن طويل، ومــع كثافة العمل واختلال الظروف بقي كذلك،



ومهمـا كان العدد، ومهما كانت مشاغلهـا فهي قادرة وكأنها متفرغـة لذلـك وليس لهـا عمل سـواه، وبيت السيّـد عباس يحتاج إلى فريق من الطباخين، ولم يجلب طعاماً من مطعم الا نـادراً، فام ياسـر ترفض ذلك بشدة، حتـى العاملين مع السيّد من متابعين ومرافقين وحرس لم يحرموا من طعامها فـي أكثر الاحيان، ترسل لهم الطعام مع اولادها إلى الطابق الارضـي، تسأل عنهم وعـن حاجاتهـم، وان مرض احدهم يلقى من أم ياسر عناية خاصة ومتابعة يومية، يأخذ له ياسر الطعـام الصحي المُعنى بصنعـه ليعينه على المرض، ياخذ منه مـا اتسخ من ثيابه، ترسل لـه شراشف، اغطية ووسائد نظيفة، وتتابع احواله حتى يشفى.

وتشاهد قريباتها ذلك ويقلن باستغراب:

- شو انت ناقصك شغل يا أم ياسر؟...

وقلبها الرقيق دائماً يردد عنهم وعن سواهم من خلق الله.

- حرام... معليش

حتى للذين يؤذونها

- حرام معليش..
- فيهم ثواب..
- الله اخبر..



وهـي التي تخاف بشدة وتحتاط كثيـراً ان تؤذي أو تزعج احداً، اي احد. تطيّب خاطر هذا، وتعتذر لذاك، بالرغم من

انهـا تعلم حب الناس لها، ومعرفتهم لما في قلبها من طيبه، ومع ذلك تريـد ان تكون واثقة مطمئنة، تريد رضا وصفاء لا يصاحبه كدر، وتقول:

- احسن ما يظل بالنفس شيء

قد تضغط وقتها، لتزور فلانه التي قيل انها تحدثت عنها بسـوء، لعـل هناك حق لهـا تعطيه، أو مظلمـة تردها، وتجد الوقـت دائماً، ولا احد يدري كيف، تعـود مريضاً هنا، وتودع مسافراً هناك، أو تعزي محزوناً، وتلك بحاجة إلى نصيحة، واخرى لديهـا مشكلة، تزور جاراتها وتسألهن أن كان لديهم أي عتـب عليهـا أو على اولادهـا، فللجيران منـازل جعلوها لراحتهم، فيردون على اعتذارها قائلين:

- ياريت كل الناس مثلك ومثل ولادك يا أم ياسر...

هـي تريد ان يكـون اطفالهـا كذلك، فهي دائمـة العناية بحاجاتهـم وتتابـع ادق التفاصيـل، تسهـر علـى راحتهـم، تلاعبهـم وتلعب معهـم، تمنحهم ما استطاعـت من الوقت، تفكـر وتقرا من اجل تربية مثلى، وهـي على قناعة تامة بكل ما تحدث به الامهات من نصائح وتشدد قائلة:

- مـن ارادت لاولادها حسن الخلـق، عليها اولاً ان تكون حسنة الاخلاق، فافضل الدعوة العمل.

تردد دائماً في اللقاءات حديثاً عن الرسول:

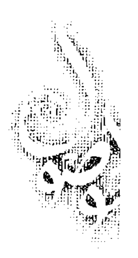
- كونوا دعاة لنا باعمالكم

والناس يرونهـا كافضل مصداق معاصر لذلك الحديث، تقـول لطفلتهـا قبل الخـروج من المنـزل كتدريـب لها على الحجاب:

- شوفيلي حجابي مظبوط.

تقوم هـي بما تنصح بـه، ذاك اسلوبها وتلـك طريقتها، وتريـد ان يتابعها صغارها في الصـدق والطيبة، في الايثار، والاهتمـام بالغير، فهـي المثل الاعلـى الحاضـر والقريب، وتجـد الوقـت أيضاً لتتابـع ما يدرسـون، وتـزور مدارسهم وتسـأل الاساتذة والقيمين وحتـى التلاميذ، لا شيء يفوتها، تماما كمن تفرغ لهم.

وحـوزة النسـاء بيتهـا الثانـي وبناتهـا، لا تريـد لهن ان يشعرن بالغربة، تتابع كل شكوى، وترفع كل هم، ان رات على وجـه احداهن غيمة حزن أو شـرود، اقتربت منها وما اسهل ان ينفتـح القلب على مصراعيه امام أم ياسر، وما اسرع ما تعـود البسمة إلى وجه الطالبة، مهما كانت المعونة المطلوبة فـام ياسر لن تقصر، بل هي لا تفكر بالتقصير، وليس ضيق الوقت والانشغال مبرراً تلجأ اليه أم ياسر.



الاهمـال ممنوع ان علمت حاجة غيرها اليها. تأكل معهن طعامهـن البسيط مرة كي لا يحرجن فـي أن يأكلن طعامها مرات، تجالسهن فـي غير اوقات الدرس، تبحث في ساعات يومها عن وقت لهن. كيف تستطيع؟؟ يسألن ولا يجدن جواباً، وهي التي لم تطلب منهن أي مساعدة.

عليمينا يا أم ياسر

لـم تكـن عائلـة أم ياسر يومـاً ميسورة الحـال، وهذا ما لا يصدقـه الا اقـرب القريـب، وحتى اقـرب القريب لا يرى الكثيـر من التفاصيل، فتلـك الادارة كانت تحتاج إلى الكثير مـن الوقت والجهد، ومنزلها لا يوحـي بالفقر ابداً. من دخل اليـه لا يـرى سوى الجمـال، والـذوق الرفيع، بـل واكثر من ذلـك، فهو منزل يرتاح بصرك فيه، تشعر بالالفه مع ألوانه، بالراحة في الجلوس والحركة، وهذا الاثاث البسيط الناعم، الهـاديء المؤثر بلا تكلف، لا احـد يصدق انه اثاث رخيص قديم جداً. لقد امتدت اليه يد فنان سترت عيوبه، واخرجت اجمل ما فيه، دائمة الاهتمام، تخيط هنا وترتق هناك، وبين يديها تتحول الثياب القديمة الممزقة إلى قطع فنيّة مشغولة يدويـاً، تثير الاعجاب والدهشة. قطـع ذات فائدة عملية في المطبـخ أو غيره، ووسائد في تناسـب لوني بديع، مع بعضها ومـع الاريكه، انتقتها أم ياسر من «البالة»، حيث تباع الثياب المستعملـة، ومـن كـوم ملابـس لا تنفـع للبس لعيـوب فيها جعلتها زهيدة الثمن. ومن «البالة» أيضاً اغلب ثيابها، وثياب

عائلتهـا، وان خاطت جديدا فمن قماشـ يسمى «محكومة»، لأنـه القطعة الاخيرة مـن لفافة القماش، محكـوم الحجم، غيـر مرغوب فيه، تعمل عليه وتحوله إلى اجمل الثياب وتجد الوقت لكل ذلك.

منزلها وباعتـراف كل من دخل اليه، يرفل بالفن والذوق الرفيـع، فـي المساحات اللونيـة المتجانسة، وفـي الاشغال اليدوية البديعة الصنع، كمن تخصص ودرس الكثير ليخرج بكل ذلك المتقن والبديع الذي يثير الدهشة. من علمها تلك الصناعـة، وفـي اي جامعة فنيّة تخصصـت، وذلك التوزيع المدروسـ للمساحـة، بيـن الفـراغ والامتلاء بيـن الحاجة والجمال، وتوزيع مدروس على خطوط الحركة، كأن كل شيء محسوب بدقة متناهية. فمن علمها فن التصميم الداخلي؟! يقولون لها فتجيب ضاحكة:

- سهل ما بدو تعليم.

سهـل كسهولـة جريـان الماء، كتدفـق الخيـر، انه شيء يصنع فـي الداخل دون تعمّد، سهل كاخراج الموجود اصلاً، سهـل كضحكـة طفل، هكذا تـراه أم ياسر، بـلا تكلف، انها هـي كما هي بلا تصنع، كيـف اذاً لا يستطيع سواها ان يكون كمـا تكون؟ من اين جئت بكل هـذا يا أم ياسر؟ النساء تقول وترجوها:



- علمينا يا أم ياسر

في الفن والذوق الرفيع وهندسة المنازل.

- علمينا يا أم ياسر

كما في الفقه والاصول والعقيدة والسيرة والتفسير والبلاغة، كما في الحوزة في التربية في الاجتماع وفي الاقتصاد.

- علمينا يا أم ياسر

في الصبر والصمت واحتمال الصعاب، خلف ابتسامة لا تغادر الوجه، بلا انين ولا شكوى، في ادارة الفقر، ادارة العمر في .. وفي..

- علمينا يا أم ياسر

في التعامل مع الناس، كل الناس، في الخُلق الذي لا يضاهى، في الاحسان إلى المسيء، في حسن الظن. ثم كيف؟ كيف يحبك كل هؤلاء الناس على اختلاف مشاربهم واهوائهم والانتماء، كيف؟.

- علمينا يا أم ياسر

في الاهتمام بالعائلة، ومتابعة ادق التفاصيل، صغيرة لاعبة مع الصغير، كبيرة حنونة عارفة مع الكبير، أم بلا نظير، صديقة تحفظ السر وترفع الهموم، وبين اناملك تحل أكثر العقد اشتباكاً، ومهارة فذة في ادارة كل هذا، كيف يا أم ياسر، كيف؟ والوقت، كيف تجدين الوقت لكل هذا معاً، وكل جزء بمفرده يحتاج إلى امرأة نشيطة قادرة، كيف



تكونين لكل هـذا وبهذا المستوى من الاتقان؟ كيف تحيطين بهذا المستحيل كيف؟.

- علمينا يا أم ياسر

كل من يعرفها، وحتى المقربين، الاهل والاخوة أيضاً، كلما زاد الاقتـراب منها وزادت المعرفـة زادت الدهشة، والاكثر اقترابـاً زوجها السيّد عباس، والذي يعرف كل تفاصيل ذلك الجهـد، والزوايا الخفيّه في ذلك العطاء العجيب، وهو يتابع ابتسامتها مدهوشاً وسعيداً في آن واحد ويتساءل:

- الا تشتكين يا أم ياسر... الا تشتكين ابداً

شراكـة عمرها سنيـن طويلة، تتقلب فيهـا الظروف من صعـب إلـى اصعـب، ومن ثقيـل إلى اثقـل، والعطـاء ذاته، بالجمـال والاتقـان ذاتـه، دون تغييـر، ودون ان يتأثر الخلق الرفيـع والوجـه البشوش، طالما يأتـي اليها وهـي سكناه، متعباً، مستنزفاً حتى آخر قطرة من روحه وجسده، ليستعيد ببسمتهـا وحسن اللقـاء نفسه وروحه من جديـد، يستغل اي سانحة مـن الوقت ليجالسها، يصنع القهـوة بنفسه ويجلس واياهـا على شرفة المنزل، يشرب قهوته ويشرب ابتسامتها، ولا يرى الا جميلاً، يريد اعانتها وتشجيعها فلا يجد الا اعانة منها وتشجيع، يريد رفع همها فترفع همه، ولا احد يسمع في لقائهمـا سـوى الضحكات، فيعود إلى ساحتـه جديداً نشيط الروح، وهو يسأل كيف تستطيع.



سألوها هذا السؤال مرارا:

- كيف تستطيعين الاحتمال؟

كثيراً ما كانت تتردد تلك الاسئلة:

- كيف تجدين الوقت والقوة؟

- كيف تستطيعين وانت امرأة واحدة؟

وام ياسر مع ابتسامتها ترد بالإجابة ذاتها في كل مرة:

- الله بعين

لم يكن كلام بسيطاً، أو أحرف تتردد وقد افقدها التكرار معناها، لم تكن اجابة سريعة تشبه الصمت بلا دلالة، بل هي اجابة تختصر مجلدات من التعريف، وعدد لا تستطيع أم ياسر احصاءه من العطاءات والنعم الربانية.

- الله بعين

انه تكدس من اعانات تراها دائمة الفيض بلا انقطاع، على طول خط العمر، فيها وبها ومعها، عطاء بما تراه فيها من نعم في جسمها والروح، وعطاء معها بما تراه من اعانة لها على كل ما تفعله وبما يسبب من اسباب، وعطاء تراه في كل شيء في كل صغيرة وكبيرة حولها ، عطاء خالقها يبكيها، ولكم كانت تخجل من ذاك العطاء، وتلك المنح، فكل شيء هي فيه انما هو منحة منه، وبه دائما تستعين، قدرتها النفسيّة والجسدية تلك هي بعض من عطاياه، ولسوف يعطيها حتى ترضى، وهي أكثر من راضية، هي خجلة من



عطاياه، ويدفعها خجلها إلى البكاء.

حين يزداد تزاحم تلك العطايا، يزداد خجلها منه، تحار في الليالي وهي تتقلب في الساجدين، تشتد سطوة تلك المشاعر بعد صلاة الليل، فلا تجد ملجأً منها الا اليه، حتى يصل انينها الخافت إلى مسامع من ابقاهم السهاد يقضين في هذا الليل، يتسرب صوت انينها من تحت الابواب المغلقة، وام ياسر في انينها الخافت غارقة في سجودها الطويل، يذهبون بارقهم ثم يعودون، يذهبون ويعودون، وام ياسر ساجدة، وصوت الانين يتسرب من شق الباب، وام ياسر غائبة في سجودها، في مناجاتها والبكاء، في دعائها الطويل، وبالهمس المتقطع الملحاح:

- يارب.. يارب.. نعم الرب انت، وبئس العبدة أنا، كيف يا رب اشكرك على عطاياك، دلني يا سيدي كيف؟ كيف تستطيع عبدة مثلي ان تشكر خالقاً مثلك، انا عاجزة يا رب عن شكرك، عاجزة.. عاجزة.

ام ياسر تقصد تماماً ما تردده في تلك الكلمتين «الله بعين» وكما تصرح في كل مناسبة عما هي مقتنعة به، قناعة لاشك فيها، فهو عندها معين في كل شيء، مهيئ الظروف مسبب الاسباب، وتراه شديد اللطف بها، بعد كل هذا كيف لا تكون كما يحب، وكيف لا تحار في شكره.



كيف تشكر؟

بعد كل تلك التجربة الطويلة، وبعد كل هذا الجميل الذي احاطها به، يشغلها الشكر وكيفية الشكر، هي راضية راضية، فكيف لا تكون شاكرة. لا القول يكفي ولا السجود ولا حتى البكاء تأثرا، كل هذا هو شكر في القلب، تريد له ان يترجم فعلاً، ان يظهر اثره، أو على الاقل كيف لا تكون جاحدة لنعمه تلك؟ فكيف يشكر من لا يريد ان يكون جاحداً؟ وما ابشع الجحود امام كل هذا العطاء، سوء التصرف بالنعم تراه أم ياسر جحود، فليس يشكر من لا يحسن التصرف بالعطاء! أتُشكر نعمة البصر بالنظر إلى ما حرم الله، وان شكر اللسان، حتى اللسان وقدرته على النطق، أيشكر وان قال به ما استطاع ان يقول الحمد لله والشكر لله، وقبل ذلك وبعده يكذب بهذا اللسان ويغتاب، وبه يقول النميمة والبهتان ويصنع الفتن.

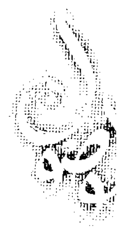
من لا يحسن التصرف بالعطاء في رأيها كالبركة المثقوبة، لا يظهر فيها ماء السماء، لا يجتمع الشكر مع سوء التصرف بالنعم، حسن التصرف بالنعمة أول الشكر لها.

وبالشكر تدوم النعم، تقول أم ياسر لسامعيها:

ليس الدوام فحسب، مع الرب الكريم تكون لان شكرتم لأزيدنكم.

وعند أم ياسر ليس يشكر من يبخل بالفيض الزائد من تلك النعم، وما أكثر الفيض الزائد من قوة وإمكانات، من وقت ومال! وهي تجد ان ما عندها كثير، أكثر من حاجتها، في طاقتها والقدرة، في وقتها. فلماذا تبخل به وهو فوق حاجتها؟ والحاجة وان التبست على بعض الناس، فهي واضحة عند أم ياسر، بل شديدة الوضوح، ما توقفت أم ياسر ما ترددت تسال نفسها عن هذا الذي هو لديها هل هي بحاجة له؟!.

تعرف ان عليها ان تقف على الخط الفاصل في تلك المفاضلة بين حاجتها وحاجة سواها، وام ياسر تخاف وتحذر، تتقي في اماكن الشبهة، حتى في الشك القليل هي تخاف، بتلك التقوى تنزل البركات وتفيض، «لو ان اهل القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماوات والارض». بالتقوى يكون الشكر، وبالشكر تكون الزيادة المتكاثرة التي لا يحدها حد، تفيض كما تفيض العيون المتدفقة من ماء السماء، وام ياسر ترى بكل وضوح تلك النعم وفيضها، وكلما نظرت إلى ماضيها والحاضر، ترى تدفقها الفائض أكثر مما تحتاج، أكثر بكثير، وهنا تخاف ان تكون جاحده، الكريم يعطي والمحتاج ياخذ حاجته فقط،



بـلا هـدر، وبالتقوى الذي هو عين الشكـر لديها، تخاف من الجحـود بالنعم، ما يراه الناس فيها من كرم، تراه هي شكر من ضعيـف محتاج، اعطي فوق حاجتـه، اخذ حاجته وترك الباقـي يذهب لمن يحتاجـه، حاجة حقيقية فـي مكانها، لا يداخلها وهم من طمع، أو من غريزة تملك.

وللحاجـة سلم مـن الاولويات، ومـاء المطـر يذهب اولاً للارض الاكثر عطشاً، الحاجة نسبية، والاكتفاء نسبي ايضاً، قـد تدفع الحاجة الكثير مـن الناس إلى بدائل غير تلك التي تعتمدهـا أم ياسـر، لقد وضعـت حجراً بدل قائمـة السرير المكسـورة، غطتهـا بشرشـف جميـل مطرز، وظـل الحجر اعوامـاً طويلة بديلاً لقائمة مكسـورة، وكانت تستطيع شراء غرفة غير تلك الغرفـة القديمة لنومها، من المال الذي بين يديها، من مالها هي ومال زوجها، من هبات تأتيها من اهلها وذويها، لكنها تجد ان هناك ما هو اهم من ذلك، فهي تعرف حاجتها، وتعرف قائمة الاولويات، بلا وهم من طمع، منزلها تعرفه، وتعـرف كيف تدير حاجاته والنواقص، وللمساكين حاجات هم يعرفونها.

بعـد جهد وفرت مبلغاً جمعتـه طوال الصيف، جمعته من اجـل الشتـاء، فاولادها يعانون مـن المنزل البـارد جداً في الشتاء، اشترت بما وفّرتـه سجاداً من النوع العادي، فرشته فـي اول الشتاء، فـي الموزع الذي تكثر فيـه حركتهم، كانت سعيـدة به وهي تـرى الاقدام الطرية تدوسـه دافئة في هذا

الجـو البارد، لم تمضِ على ذلك فترة من الزمن حتى تطرق الباب امـرأة مسكينـة، وبـاب أم ياسر يقصـده المساكين فـي كل الفصول، شكـت المسكينة بـرودة منزلهـا ومعاناة صغارها، فرقـت أم ياسر ولفت سجادتي المدخل وقدمتهما لها، سعيدة بقضاء حاجة محتـاج. وهي ستتدبر امر الشتاء البارد وتعرف كيف، وستجد وسيلة لذلك.

هـي تعرف حاجتها وغيرها يعرف حاجته، قد لا يستطيع غيرها ولكنها تستطيع، صاحب الحاجة اخبر بحاجته، وكيف تنقضـي، وكيف يسد فراغ تلك الحاجـات، وهي ما احتاجت يوماً ولا شعرت بضيق، فصاحب الحاجة اعرف بها، وبكمها وكيفهـا، لذلـك مـا كانت تـرى الامتلاك لمجـرد الامتلاك حاجة، ولا التخزين حاجه، الحاجة هي حاجة في وقتها عند أم ياسـر، فاذا جاءتها هدية تنظـر اليها على هذا الاساس، وضمـن تلك النظرية، وكثيراً مـا كان يأتيها من الهدايا على انواعهـا، فلها اقارب واهل تجـار ومزارعون، واصدقاء كثر، وحاجاتها قليلة، كما تراها هي، يأتي اليها الكثير من الهدايا والهبـات، والكثير أيضاً مـن ذوي الحاجة، وهي ترى وتبحث دائماً عن محتاج، والرزق في تفاوت ان كان قليلاً يكفي، وان لم يكـن موجودا تصبـر، وان كان كثيـراً فالمحتاجون كثر، وهي الناشطة اجتماعياً تعرف اسرار البيوت وحاجاتها.



تأتيهـا بعضـ الفواكـه والخضـار فـي صناديـق صغيرة متنوعـة بعد حرمـان لأيام عديدة. فيحـوم حولها صغارها،

فهذه الفواكه والخضار شهيّة، فتطلب منهم بابتسامتها التي لا تُرد، ان يصبروا قليلاً، لتقوم بما هو حق كما تراه وتعرفه، وكما اعتادوا منها هؤلاء الصغار، يقفون بلا اعتراض، وهم يعلمون ماذا ستفعل.

تجلب عدداً من الاكياس، هذا الكيس لبيت فلان، وذاك الكيس لفلانة، وهذ لأيتام فلان، وهذا لصديق تعرفه، وتلك لا بد ستأنس بهذه الفاكهة. ولمنزلها كيس لا يزيد محتواه عن باقي الاكياس.

يقدم لها قريب ثوبا انيقا فاخرا كهدية قيمة يريد اسعادها بهديته، ويسألها عنه بعد زمن لأنه لم يره عليها، فتعتذر وتقول:

- اخذته من هي احوج.

لديها من الثياب ما يكفي، أو انها لا تريد أن تلبسه لان اثار الترف بادية عليه، يعرف الجميع انها لا تحب مظاهر الترف تلك، وهي تستطيع بثمن بسيط صناعة ما هو اجمل منه.

فالجميل الانيق من الثياب لها ولعائلتها حاجة، ليس الكم فيه والكيف هو المطلوب، يكفي ان لا يبدو عليه الفقر، وان كان مصدره محلات تبيع الثياب المستعملة، أو تمت اعادة تدويره من الكبير إلى الصغير، أو تعرض للتجديد واصلاح العيوب، والكل يرى في ثيابها وثياب اولادها اناقة لافته

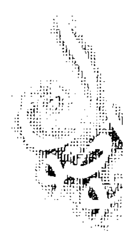


وجمـال مميز، وراحـة عملية في الحركة، فـام ياسر اضافة إلـى ذوقهـا الرفيـع، فهي ماهرة فـي التصنيـع، ماهرة في الاختيار، كما هي ماهرة في اغلاق النقص بأفضل الوجوه.

ولا عجـب ان تكـون دائمـة الابتسـام، فـي كل الاحـوال، فالأحـوال مهما تقلبـت سواء عندها، وان ضـاق الحال فهي واثقة ان هذا زائـل ومتغير ولا تجد صعوبة في الصبر عليه، قـد يشتـد الفقـر وينفذ كل مـا لديهـا، ومراراً مـا كان هذا يحدث، ولا يعود يدخـل المنزل حتى اليسير من المال لفترة قـد تطول، ويظل الطعـام، بطاطا مهروسـه، برغل وعدس، ويقـل حتى يصل إلى الحرمان، لا تـراه هي الا في صغارها، اذا افتقـدوا يومـاً كل شـيء، ولم يبقَ غير الخبـز، اكلوه في الصباح مغمسـاً بالشاي والسكر، وعلى الغـداء سألوها عن الطعام، وماذا سيأكلون؟ فتذكرت ذلك الافطار في النجف، افطار أمير المؤمنين، ولما كان اليوم جمعة، وهو يوم الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف قالت مبتسمه:

- نحن اليوم ضيوف صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف.

فانس الصغار، وهم الذين يعرفون عن اهل البيت الكثير، لكثرة ما حدثتهم الام عنهم بكل شغفها والحب، لم تغادرها ابتسامتها وهي تعرف بيتها الخاوي، ولكنها حين طرق الباب وفتحـه ياسر ورأت ما امام الباب دمعـت عينها، لقد تكدس الكثير امام الباب من لحم وبيض وخضار... و... ولم يعرفوا مـن جـاء بهذا كلـه، وان حاول ياسـر القفز علـى الدرجات



ليعرف، لكنه لم يجد احداً وعاد.

مسحـت دموعها وضحكت حين تمنـى الصغار ان يكونوا مـن ضيوف صاحـب الزمان دائمـاً، فهم يعرفـون ما معنى الضيـف من امهم واهتمامهـا بالضيوف، وكيف يكون له من افضل الطعام واحسن المنام.

الضيف ليـس كأحد من المنزل، بل هـو سيدهم والارفع شأنـاً ومقامـاً، وهـم يذكـرون من اشهـر قليلة مـرة، كيف استضافـوا امرأة مع ولدها، جاءت إلى السيّد عباس تشتكي وضعها الصعب وزوجها الذي لا تعرف مكانه، وعدها السيّد بالعمـل على مساعدهـا، وانزلها في بيته هـي وطفلها لمدة طويلة، كانـت خلالها عزيزة مكرمة، وفي بعض الايام كانت تستدين أم ياسر من اجل ضيفتها كي لا تشعر بالتقصير.

تريد أم ياسر ان تكون شاكرة شكرا لا جحود فيه.



للمقاومة كل المكان

تبقى أم ياسر كما هي، كأن الاحوال لا تتغير، أو ان التغير لا يعني لها شيء، تظل راضية شاكرة دائمة الابتسام، وان تألمت، تألمت بصمت، لا تحزن من اجل ما يصيبها، حزنها اكبر من ذلك، أو كأن يد الحزن لا تطالها الا حين يكون الحزن شاملا، عاما، كذلك الحزن الذي يصيبها مما تسمعه عن الاحتلال وما يفعله، ليكون حزنها مقروناً بثورة.

هي المتابعة لأدق التفاصيل، وهي الثائرة الداعمة للمقاومة، في الوقت الذي كان عموم الناس وسوادهم الاعظم لا يؤمنون بها، بل يعتبرونها تهوّر وعمل ينافي العقل والمنطق.



لا المقاومة مرغوبة، ولا الداعمين لها، وام ياسر تخوض تلك المعركة، كما خاضت معاركها ضد التقاليد والعادات الخاطئة والمفاهيم العقيمة الموروثة، معارك خطرة يخاف سواها الخوض بها لأنها تهدد مكانتهم في المجتمعات، مصالحهم مع الناس، يفضلون ركوب الموجة، السير مع التيار، اما هي فالحق موجتها، وتيارها حيث يقف المظلومون.

تخوض أم ياسر معركتها الجديدة، الاكثر صعوبة، معتمده على قدرتها على التأثير، وحب الناس لها، ليس لإقناع الناس بجدوى المقاومة وحسب، بل دعمها أيضاً بكل ما في الامكان.

بالكلام الطيب، بالخلق الحسن، بما لدى الحق من حجة، يتفهم الناس، وتعذرهم وان وقفوا ضدها، وان ارادوا غير ما تريد وان لم يستجيبوا، تظل هي وابتسامتها والكلمة الطيبة، والفعل قبل العمل، سعت إلى دعم المقاومة. تبرعت بالعقد الذي جاءها هدية والذي لا تملك سواه، تبرّعت بما تستطيع الاستغناء عنه في منزلها. حتى ادوات المطبخ، الادوات الكهربائية التي تستطيع الاستغناء عنها بالعمل يدوياً، وتحدث الناس عن المستقبل المظلم بلا مقاومة، تحاول ان تريهم ما ترى، كم من فئه قليلة غلبت فئه كبيرة بإذن الله، وان الوقوف مع الحق لا يترك، وان عزت الامكانات، وان الجهاد باب من ابواب الجنة، وان لم يكن بالنفس فبالمال بالكلام وبالقلب.

لم تترك مكاناً الا وذهبت اليه، مؤمنة واثقة عن حق وصدق بما تقوم به، يساعدها طلابها اصدقاؤها والمقربون. ورغم صعوبة ذلك المسلك المناهض لهوى اغلب الناس، ظلت مؤمنة بالقدرة على تحقيق انجازات واضحة على تلك الاصعدة.



الجنوب في عينها والقلب، تتألم كما اهل الجنوب. كما الرازحين تحت الاحتلال، وكانها هي من تتعرض للقصف

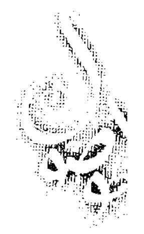
والتكيل والاعتقال. وتشتد هجمة قوات الاحتلال، يعتقل الشيخ راغب حرب، وتثور أم ياسر كما تثور جبشيت، تستنهض الهمم وتحمل راية الثورة على الاحتلال.

ثم يأتي اغتيال الشيخ راغب، ذاك الشيخ الذي تعرفه وتعرف عنه الكثير مذ كان في النجف الاشرف، وتحول حزنها غضبا، وغضبها عملاً مكثفاً، ولم تدخر جهدا، حملت راية المقاومة ونصرتها لتصبح هي همها الاول، حين ارتفعت مع اغتياله وتيرة المقاومة، وبدأ اسمها يزداد حضورا كمقاومة اسلاميّه تأخذ مكانها في الصراع، فاعلة قوية مهابة، ليصبح وجودها مع الوقت بالغ الاثر.

وتصبح المقاومة الاسلامية شغل السيّد عباس وهمه الدائم، اذ تفرغ لها بكل معنى الكلمة، ليكون قائدها المتفاني، وهو الخاضع لعدة دورات عسكرية، ويتولى هو قيادتها، بكونه المسؤول عن الجنوب في شورى حزب الله، بعيداً عن كل شيء سوى المقاومة، وتصبح المقاومة عند أم ياسر، كل شيء، مركز حبها وعطائها بلا منازع، وبدأ غياب السيّد عباس يطول، قل حضوره في المنزل والمحيط، حتى اذا طال الغياب كثيرا ذهب اليه هي، وكلما طالت المدة صحبها أحد اليه، لتبقى معه اسبوعياً أو اكثر، ثم تعود لتتابع بحماس اشد، كأن تلك الرحلات إلى الجنوب تمنحها زخما جديدا، وايمان بالمقاومة يتجدد، تعرف كل شيء عن المقاومة، وتدربت حتى على السلاح.

تمر السنوات وفعل المقاومــة يزداد عمقاً واتساعاً وقوة، ويستقر السيّد في الجنوب وتحديداً في مدينة صور، وتذهب اليه أم ياسر في زيــارات تطول كلما سنحت لها الفرصة، أو كلمــا طال غيابه، حتى اذا جاء الصيف اخذت عائلتها كلها، ولم يكن صغيرها حسين قد تجاوز الشهور الثلاثة. اسكنهم السيّــد في «طير دبا» القرية القريبــة من صور، وصارت هي واطفالهــا تــراه، يعــود اليهم في كل يــوم تقريبــاً، كان ذلك التواصــل العائلــي قــد عــاد شديد التأثيــر، حتــى ان السيّد اخذهــم للبحر أكثر مــن مرة، وعلى ساحــل البحر يلعب مع الصغار بالرمل، ويتشاجر معهم هو والامواج.

ان غــاب يوما عاد في اليــوم الثاني، محبا متفاعلاً، كمن يريــد التعويض سعيداً بهم، فهو قربهم ومعهم، دون الابتعاد عــن المقاومــة، سعيداً بهم وبمــا يُنجر على ارضــ الجهاد، يشارك في العمليــات، وفي التنظيم والاعداد، ويعود لهم اباً محبــاً ابا كأجمل الابــاء، مرت اجمل الايــام، وكل شيء كان يسير فاعلاً جميلاً، مشعاً.



بالرغــم من الامكانــات القليلة، بالرغم مــن الصعوبات التي كانت تواجه العمل الجهادي، بالرغم من الجو الضاغط والاشــكالات الامنية، مــن نزاعات داخليــة، الا ان المقاومة اصرت على متابعة قتال اسرائيل في تحد لكل تلك الظروف، تحــد عجيب تــراه أم ياسر كما يراه السيّــد عباس افضل رد علــى النزاعــات الداخلية، وعــدم الرضوخ لتلــك الضغوط.

ويشتـد تعلق أم ياسـر بالمقاومـة، كلما اشتـدت الضغوط، داعمة ومناصرة في كل فعلها والقول.

فـي المواقع الثابتـة للمقاومة، كان التحـدي الكبير، في جبـل صافي ومنطقتـه، ظلت تلك المنطقـة عرين المقاومة ورمزهـا، ولم تسقط رغم كل شـيء، رغم الاستهداف الذي طالهـا مـن جميع الجهـات والاتجاهات، وام ياسـر لم تهدأ ابداً، ويزداد بعد ذلك التأييد والدعم الشعبي للمقاومة.



مكانة المجاهدين

للمجاهديـن الذين هم حبها المقدس، لهم كل شيء عند أم ياسـر، هم عندها اصحاب الحسيـن المعاصرون، هكذا كانـت تراهم، وتـرى نفسها خادمـة زينب، ترى بـام عينها كربـلاء التي تنتصـر بفضل المجاهدين، لهـم في قلبها كل التقديسـ، ولشدة حبهـا لهم ارادت لولدهـا ان يكون واحداً منهم.

لـم يكن ولدهـا البكر ياسر قـد تجاوز الثانيـة عشر من عمـره، ولكنهـا ارادته ان يكون واحدا منهـم. والسيّد عباس فرحاً بالولد وامه، ادخله في دورة عسكرية، كان الاصغر بين كل مـن شاركوا في تلك الدورة التي استمرت أكثر من شهر، وام ياسـر تمتلئ فرحاً عن قناعه راسخـة، تريد لأبنائها ان يكونوا اول المجاهدين وحين تسأل عن ذلك تقول:

- اريد لهم افضل مستقبل.



هي تـرى المستقبل الابعد، المستقبـل الموصول بالنعيم الخالد، وهل تختار الام المحبة مستقبلا غير ذلك لأبنائها،

حبهـا لهم يدفعهـا للاخذ بيدهـم إلى افضل ما فـي الدنيا وحملـه إلى الآخرة، آخر المستقبـل، العين القاصرة وحدها لا تـرى نهاية الطريق، أم ياسـر تراه بوضوح، تحدث ناسها، تقف معهم تقول لهـم انظروا، اما ترون الابعد، وتعجب لمن لا يـرى آخر الطريق، قصر نظـر هذا، أم هي حجب تتكدّس طبقات، تعزل المدى عن متناول البصر.

انها ترى المستقبل، تراه واضحاً جلياً، ولا تريد لمن تحب سواه، واولادها هم الاقرب إلى القلب.

للمرة الاولى يغيب عنها ياسر كل تلك المدة. يتنازع قلبها الشوق والفرح بياسر المجاهد الصغير.

حتى اذا انتهى التدريب وعاد، قال له ابوه:

- انتظر بالسيارة.. خمس دقائق واطلع..

- ليش؟؟

- نختبر قلب امك.

وتركه عند الحرس وصعد اليها وحده، وقال لها:

- جهزي حالك للنزله عا بيروت...

- خير.. شو في؟!

- ياسر اصيب اثناء التدريب.

رقت ملامح وجهها، صمتت قليلاً ثم قالت:

- ماشي... دقيتين واجهّز حالي.



واستدارت لتخرج مـن الغرفة خطت خطوتين بثبات، ثم التفتت اليه وقالت بصوت خفيض.

- هل اصابته بليغة؟؟

صمـت السيّد ولـم يجب، زيـادة في امتحـان صلابتها. لكنهـا اتجهت إلى الغرفة الثانيـه ودخلتها بكل ثبات. ابتسم السيّد سعيداً وهو يسمع طرقات الباب ثم صوت زوجته:

- ياسر حبيبي...
- ماما...
- نيالي صار عندي ابن بطل.

شعر ياسـر في هذا اليوم والايام التـي تلت بعد ذلك انه كبر في عينها، وكبر حبه في قلبها، شعر انه اقترب كثيرا من ذاك المكان المقدس في قلـب أم ياسر، مكان المجاهدين، فهـو يرى كغيـره قدسية تلك المشاعـر، ومكانة المجاهدين عندها.

حيـن عـاد السيّـد يومـاً، وكان علـى صـدره الكثير من الدمـاء، وحين طمأنها علـى نفسـه، اذ كان يساعد في نقل شهـداء من المقاومة، بكت حباً وهي تقبّل الثياب وتحضنها، تشمها وتمسح بها وجهها ثم تعاود احتضانها، وهي تبكي حباً وتدعو، وياسر يرى ذلك منها.



تصنع في العيد كعكاً لهم بكميات كبيرة من مال تجمعه، وطوال وقت التصنيع تدعو لهم وتتبارك بما تصنع، هم على

لسانها في كل دعاء. وهي التي تحفظ الادعية لا سيما ما يتعلق بالامام المهدي. تتعامل مع الدعاء بطريقة خاصة، ويراها اولادها كتربية فذة ابلغ من كل كلام الدنيا. تتوضّأ وتلبس الحجاب في الادعية الطويلة ذات الاثر البليغ لديها كدعاء الندبة، توزّع الادوار على من يستطيع القراءة من اولادها، ليقرأ كل واحد جزء من ذاك الدعاء، وبعد كل دعاء تدعو للمجاهدين ويردد خلفها الصغار بكل التأثر الذي يرونه في عينيها ونبرة الصوت.

واصبحت تخص ياسر بالعناية والدلال وتقول:

- ولدي المجاهد ياسر

حين ذهب ياسر ليكون مع المجاهدين، كان في الثالثة عشر من عمره، وظل في ايام عيد الاضحى هناك، وكان اول عيد لا يكون فيه ياسر، وبعد عدة ايام طرق الباب احد الحراس في الشقة المقابلة.

- حجة ممكن تحكي على الاشارة؟!

- مع مين؟

- ياسر

بعد المعايدة والسؤال عن الاحوال، وبعد التشجيع والكلمات الحنونة التي اشتاقها، سألته بلطف:



- كل الي معك اتصلوا باهلن بالعيد.

- لا... انا..

- تميز نفسك عنهم؟؟.. لانك ابن السيّد عباس؟؟

عاتبته ولامت، حتى كاد يبكي، وطلبت ان لا يعود لمثل هذا مـرة أخرى، وعليه ان يكون اقل واحد فيهم اذا اراد رضاها، وظل صوتهـا مؤنباً حتى اقسم لها، انهـم كانوا يتحدثون مع بعلبك على الجهاز، وهـم الذين سألوه ان كان يريد الكلام، رجاهـا ان ترضـى فرضيـت، لـم يستغـرب العاملـون على الاشارة، فهي أم ياسر.

الدخول إلى الصعب

تتابع اخبار المقاومة وتعرف الكثير عنها. تقف هي وطلاب الحوزة، على سطح المنزل وتدعو لنصرة المقاومة وسلامة مجاهديها حين تشعر بالخطر.

في عمليات بدر الكبرى كانت تعلم بمشاركة السيّد عباس، ودعت لرجال المقاومة بالسلامة والنصر وخصّته بالدعاء، بالعودة السالمة المظفّرة، وحين علم ذلك منها، بعد عودته، عاتبها بحبه حين قال:

- لماذا لا تريدين لحبيبك الخير... لماذا لا تدعين لي بالشهادة؟!

تصمت ثم تقول وقد اشاحت بوجهها عنه.

- أدعو لأولادي بالشهادة بلا شرط.. الدعاء لك بشرط.
- اي شرط؟
- انك تستشهد بعدي..



دمعت عيناها فهي لا تستطيع، كانت تستعيد ذلك الغياب الطويل في جبهات ايران. وتعلم انها لا تستطيع.

- ما بقدر عيش من بعدك ابداً...

- وفراقك سهل علي... يا ابنة الزهراء؟؟

- ....

انّه النداء المحبب اليها، هو يعلم كم تحبه منه.

لم يتطرقا بعد ذلك إلى مثل هذا الحديث، لصعوبة فيه تعترض المشاعر المتدفقة تلك. كلما نظرت إلى داخلها، حاولت ان تهيئ نفسها لخبر استشهاده، فلم تستطع، وظل الدعاء تحت تلك الصيغة المشروطة، ولم تتنازل عنها ابداً. قول واحد ودعاء لا تستطيع تغييره، ان تسبقه هي إلى الشهادة، ان لا يمتحنها الله بتلقي خبر استشهاده، والعيش دونه، وهي حين تقول في دعائها «ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به»، ترى نفسها تقصد هذا، تقصد الحياة دون تواجد السيّد عباس معها، فاستشهاد السيّد عباس قبلها هو وحده الامر الذي لا طاقة لام ياسر به.

حين ذهبت إلى ايران بكت بحرقة عند الإمام الرضا عليه السلام، ودعت بنفس الدعاء المشروط دعاء واحد بجزئين متلازمين.



وفي الزيارة الثانية كان الدعاء مطلبها أيضاً ورجاءها الحار، وفي تلك الزيارة زارت الإمام الخميني، شاهدته عن قرب، كان قلبها يخفق رهبة وتقديساً، هو لا ينظر إلى النساء، انما يدفع نظره إلى مكان ابعد، أو يجول به في

المكان بلا استقراء أو ينظر إلى الارض، يمنحها هذا فرصة النظر اليه، والاستغراق في تلك الملامح الآسرة، وكأن ذلك الوجـه لا يرى بالعيون فحسب، كانت تشعر ان له هيبة كهيبة اهـل البيت، اقتربت منه للبركة وقربـت ابنها، سألها الإمام عن اسمه، دون ان ينظر اليها، فقالت:

- حسين.
- وضع يده على رأس ولدها وقال:
- - مظلوم حسين.

اسعدتهـا تلك المباركـة، وظلت تنظر إلـى الإمام طوال الوقت، وحيـن عادت من عنده بقيت مذهولـة لبعض الوقت وهي تـردد: ان له وجهاً لا يمكن رفـع البصر عنه، ولكم هي سعيدة بتلك الزيارة.

عادت إلى لبنان، وعادت إلى كل ما كانت فيه، ترتفع وتيرة كل شـيء حولهـا، فالمقاومة تـزداد اتساعاً وقـوة، وحضور السيّـد السياسي والاجتماعـي يزداد ويزاد معـه الانشغال، والتعلـق به، وحركتهما معـاً وسويـاً ازدادت، تسافر معه في بعض المهمات الاجتماعية، تسافر معه إلى الشام، وبصحبة العائلة في زيارة للسيدة زينب، ومعه تذهب إلى اماكن أخرى تلقي محاضـرات أو تزور معه اسر الشهداء والجرحى واسر المعتقلين.

وتصبـح اقرب اليه واكثـر التصاقا وهو سعيد بحضورها



معـه، لا يـدع مكاناً تستطيـع الذهاب اليـه الا واخذها معه، ومشاغلها تزداد.

حـدث ما زاد من تلك المشاغل حتى تحول إلى هم كبير، القى بظلاله على الكثير من التفاصيل، انه ولدها محمد.

فـي البـدء كان طفلا كمـا باقـي صغارها، يمـلأ الدنيا بتفاصيـل جمالـه والبراءة، لكـن التغير ظهر بعـد السنوات الاولى، فـي النطق وفي الحركة، وبعـد العديد من الزيارات لأطبـاء كثـر والتـي لم تـؤدِ إلى نتائـج ملموسـة. جهد كبير ومعانـاة علمت من خلالها أم ياسـر بصعوبة ما تواجه، وأن هـذا التغير الواضح على ولدها يتسارع وما ذاك سوى مرض بلا علاج، يدعى التوحد.

تسـوء حالة محمـد يوماً بعد يوم، وهـي تتابع كل تفصيل عنـه، وعن حالته هـذه، كل شـاردة وواردة، تسـأل عن أدق تفاصيـل هـذا المرض، أعراضه وتطـوره وحاجاتـه، تقرأ وتبحـث وتغوص في التفاصيـل، حتى باتت تعـرف عنه كما يعرف أهل الاختصاص، تتابع بقلب أم وعقل طبيب، ويتطور مرضه كل يوم، ويصبح الفارق بين شهر واخر أكثر وضوحاً، يتأخر في نطقه، وتزداد حركته غرابه.



أضحى بحاجة إلى عناية اشـد، وتفرغ اكثر، ولا تستطيع تركـه إلا عند الضـرورة، أو حين يأتي اولادها من المدرسة، أو فـي وقت نومه لتتابع شؤونها ومشاغلها الكثيرة لا تريد ان

تقصـر في اي مكان، وهي قادرة حتى علـى القراءة بالرغم مـن هذه الظـروف الصعبة التـي يضعها فيهـا وجود ولدها محمـد بحالته تلك، وتـرى دهشة من حولهـا بقدرتها، تقرأ لآيـة الله مطهـري، وآيـة الله الطبطبائـي، وللأحب عندها امـام المجاهدين كما تقول الإمام الخمينـي، وفي السياسة والاجتماع، حتى وهي تحمله، وكم من المرات وجدوها غافية وبين يديها الكتاب ومحمد، وتداري حتى لا تنشأ علاقة سيئة بيـن الكتاب ومحمد، فهـو يكره اي شيء يصـرف عنه امه، يريدهـا له وحده، ويلجـأ للصراخ والبـكاء والشغب، عندما تنصرف عنه.

شغبـه هذا كان اقسى عليها مـن اي شيء، وهي النظيفة الرقيقة الحريصة على الوقت، وهـي تعلم براءته وتداريها، تتحكـم بفعلهـا وبـردة الفعل فـي صبر عجيب وهـي تداريه وتتفهمـه، فهو فـي كل هذه الفوضـى الهائلة التـي يصنعها يحـاول مساعدتها، فحين خلط مؤنـة البيت كلها على ارض المطبخ كان يلهو ليس إلا، هكذا تراه وتقول:

- حرام عم يلعب



لا يقصـد فـي نظرها سـوى المساعدة فـي العمل، حين سكب سطل الحليب على الارض بعد ان تكون قد نظفت بيتها على اكمل وجه. تتألم لكنها تبتسم في وجهه

- بدو يساعدني.. بس ما بيعرف

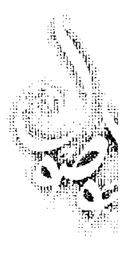
فهـو لا يعـرف، ولـم يكـن يقصد سـوى المساعـدة وهو يقلدها، من اين يعلم ان الحليب يختلف عن سائل التنظيف.

لكـم هو ثقيـل الجسـد، لكنها تحملـه وتغني لـه، اغاني يحبها ويانس بها، يطالبهـا بجر ثيابها وهز راسه في اشارة تعرفها، في وقت هو يختاره، وان كان لا يناسبها تحاول دائما الاستجابـة، ويهز رأسـه سعيدا هزات متجانسـة يدندن مع لحنها الذي يحفظه مع الوقت، ويطالبها بمزيد من الاهتمام، الذي يريد له ان يكون متواصلا بلا انقطاع، وهي لا تبخل.

ومحمـد لا يحسن التعامـل مع قوة جسـده النشيط، فهو لا يدركهـا تمامـاً، فتتكسـر الاشياء حوله وبيـن يديه، وعلى جسدها أيضـاً كان اثر القوة تلك، يؤلمها بقوة وهي الرقيقة ان شدهـا أو لاعبها. يسبب لهـا الماً جسديا دون قصد منه، يكون مفاجئاً وقاسياً احياناً، تحضنه باكية من ألمها معتذرة اليـه، تقبله وتمسح بدموعها خدّيه، فهو عندها طاهر ونقي، وهو حبيب الله.

تخفـي كل تلـك المعاناة مـا استطاعت، خوفـاً من ذلك الحديث الذي يتكرر باستمرار:

- هناك قسم داخلي.. معاهد ومدارس خاصة..



ذلك الطلـب الذي اقتنع به الكثيرون، هي ترفضه بشدة، ترفضـ مجرد التفكيـر بأخذه إلى قسم داخلـي في معهد أو مدرسة خاصـة، الحديث عن ذلك يؤذيهـا فكيف بالتنفيذ؟

مــن سيرعاه كما ترعاه؟ وهــي الخبيرة العارفة بكل ما يتعلق بــه وبمرضه، من سيرعــاه ويصبر عليه كمــا تفعل هي؟ هي أمه، وهــي تعرف فعلــه وردّات الفعــل، دواءه وحاجاته، وكل تفصيل فيه، تحاول اخفــاء معاناتها ما استطاعت، وترفض ذاك الحديث بحسم.

تدير هذا الملف رغم الصعوبة وتنظمه وتسعى للالتفاف علــى كل تلــك المشــاكل، وتعالــج تفاصيله والتبعــات، حتى يتنظــم شيئاً فشيئاً، وكهم كبير من تلك المشاكل استطاعت معالجتها وادارتها بما يتناسب مع المحيط وامكاناتها.

وتواصــل باقــي حياتها بنفســ الشغف والاهتمــام، تتابع تفاصيــل الشــأن العام، تــزور وتــزار، تدرّســ الاولاد وتتابع تعليمهم الاكاديمي والديني وتشارك وتشجع، وتصر ان يكون اولادها مثالاً في الحضور والفعالية.

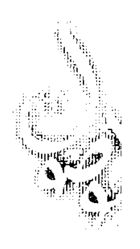
تشجــع ياسر للوقوف امام الطــلاب وإلقاء خطبه، وحين ســأل الاستاذ ياسر مــن كتب لك خطابك فقال انها امي، لم يصــدق الاستاذ فهي مكتوبة بطريقــة مميزة، ومستوى رفيع من السهل الممتنــع، الحامل لكل تلــك المضامين المتنوعة في علومها.



وتظل تتابع الحوزة، والتواصل الاجتماعي، والشأن العام، ومــن مهمات كثيرة اخذتهــا على عاتقها، فــي سلم اولويات اعتادت على تنظيمه.

ومن اولوياتها مساعدة السيّد عباس التي ترتفع وتيرتها، فحضـور المقاومـة وحـزب الله يمتـد ويتسـع، وهـي تتابع الدقائـق والشـوارد، تساعد هنـا وتسعى هنـاك، في نشاط دائم بين الفعل والكلام، ويزداد اعتماد السيّد عليها وايمانه بقدرتهـا على سـد النواقص، واصبح يحتاجهـا أكثر من اي وقـت مضى، ترافقـه والى جانبـه، وهو في قلبهـا وعينها لا يغادر ابداً، وعلى لسانها ذكره حين يغيب في رحله أو مهمة، ولا تكـف عن الدعـاء بعودتـه غانماً موقفـاً وسالمـاً، وتلك كانـت نقطة خلافهمـا الوحيدة، يعاتبها كيـف تدعو لنفسها بالشهـادة ولا تدعـو له بذلـك، وهي تعلم شـدة شوقه وحبه لتلـك المنحة والهدية الربانية العظيمة. وكلما طالبها بذلك ابعدت نظرها عنه في هروب أو غيرت الموضوع قبل ان تُلزم في الخوض فيه.

واذا خلـت بنفسها اخذها مثل هذا الموضوع للتفكير بكل تفاصيـل حياتها، بالمسيرة الطويلة، مـن الاقدام الصغيرة إلى كل هذا العالي الـذي ترتقيه، وتتساءل طوال الوقت، في ليلها والنهار تتساءل: هل هي على مقربة من الوصول، أم ان هناك ما زال في الدرب مسافة.



الخروج من الصعب

مـع الوقت تواجد شيء في داخلها، ثبته ذلك الحلم الذي رأتـه في احدى الليالـي، كانت قد غفت علـى سجادتها بعد صلاة الليل غفت ودموعها ترطب سجدتها لشدة ما بكت في رجائهـا الحار ودعائها لنفسها بالشهادة. غفت بين دموعها وهي تدعو.

استيقظـت علـى اذان الصبـح مبهورة فرحـه، فرحاً لم تعـرف مثله من قبـل، تروي ذلـك الحلم للمقربيـن وللسيد عباسـ وضحكتها تمـلأ الدنيـا، رات في ما يـراه النائم ان الطريق المؤديـة إلى منزلها تتشح بالسـواد، وعلى جنباتها اعلام سود كثيرة، وكلما اقتربت من المنزل كلما تكاثر ذلك السواد، حتى اذا ما وصلت إلى المبنى رأت على مدخله كتابة واضحة كبيرة «منزل الشهيدة أم ياسر» وبكل حنانه قال لها السيّد عباس:

- نيالك يا أم ياسر نيالك..

صمت قليلاً ثم ألتفت اليها وقال:



- ويهون عليك... ألك قلب تتركيني؟

فبكت وبين بكائها قالت في دعاء ورجاء حار، وبانفعال شديد:

- اللهم لا تفرقنا... لا في الدنيا ولا في الاخرة.

وسمعت السيّد بكل جوارحه يقول وقد مد كلتا يديه، مغمض العينين:

- آمين يا رب العالمين.

بعد ذلك قالت لقريبة لها، انها في ذلك اليوم، داهمها شعور غريب بعد دعاء السيّد تماما، وكأن شيئاً جديداً حدث. شيء مختلف، غير معهود ولا مسبوق. كانفتاح نافذة على أفق، على مدى واسع، كانهيار جدار في سجن، كاقتحام ضوء لمكان معتم، شيء ممتلئ بالانكشاف كالاستيقاظ من نوم، كمعرفة حاسمة مفاجئة، هدأت عندها أم ياسر سعيدة في راحة. بل واكثر من راحة، كأن يقيناً دخل واستقر، ان هذا ما سيحدث، لن يفترقا، هما اجتمعا ولا فراق بينهما ابداً، مؤمنة بانهما سيستشهدان معاً، كما سارا معاً، سيصلان معاً، سيعبران ذاك الباب معاً، من الضيق إلى اتساع بلا حدود، ستصاحب روحها روحه في ذلك العبور، لقد آمنت بذلك تماماً، ولكن ليطمئن قلبها طلبت طلباً صغيراً، «قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي».



خطر على بالها ذلك الطلب حين ذهبت إلى ايران، كانت

في صحبة السيّد عباس، ومعها ولدها محمد، عسى ان تكون ارادة الله فـي شفائـه مما هو فيـه ببركة الإمـام الخميني، وبلمسة من يده.

حيـن اقتربـت هي ومـن لهم نفسـ حاجتها مـن الامام، وحركـة الإمـام معروفة في وجـود النساء فهـو لا ينظر إلى امـرأة نظرة ثابته ولو لجزء مـن الثانية، فطلبت من الله في قـرارة نفسها ان ينظر اليها الإمـام ان كانت ستستشهد في صحبة السيّد عباس. كإشارةً يطمئنّ لها القلب.

تُحـدث المقربيـن عن تلـك اللحظات بكثير مـن الرهبة والشغف، تقول انهـا حين اقتربت، شعرت ان قلبها سيتوقف مـن شدة الانفعـال وهي تقـف امامه حاملـه ولدها محمد، وعيناهـا تنظران إلى وجه الإمام بـكل تلك اللهفة الطاغية، تنتظر الإشارة، تنظر إلى عينيه وهو يمسد على راس ولدها، كادت تسقـط على الارض حين رفع بصره اليها وابتسم لها، ابتسامة لم تر مثيلاً لها أبداً.

وعادت أم ياسر، كأن افقاً صافياً لا خدش فيه انتشر على طول المدى، وذلك الاطمئنان كأنه بحر من الراحة، ولم يعد هنـاك سوى الشوق، الشوق للوصـول، لعبور ذلك الباب، وما عادت تخاف من ذاك الخبر الجليل:



- استشهد السيّد عباس

فهو لـن يصلها ابداً، ستكون معه يداً بيـد، معاً سيكونان

في ذاك العبور، وهو يقين صافي لا يجرحه شك.

ذلك الضيف الايراني الكبير، تعجب لهذا الحديث الغريب، وما نقله السيّد عباس، أو هو اراد التأكد، فاتفق مع السيّد ان يختبرها بنفسه، وكان له ما اراد، وقد اعد لذلك عدته من جمل، وملامح تمثيل فيها الكثير من الاسى والتعاطف، وواجهها بكل اتقان يعرفه، ومقدمات مقنعة شديدة التأثر، وختمها بجملة:

- عظم الله اجركم باستشهاد السيّد عباس..

ابتسمت وقالت بكل ثقة وبراءة:

- لن يستشهد السيّد الا معي.



عائلتان

ازداد اقترابها من السيّد واصبح اشد من اي وقت مضى، حين تولى السيّد الامانة العامة لحزب الله.

لـم تكن سعيدة بهـذا المنصب وكأنها اخـذت إلى مكان لا تريـده، وكعادتها حيـن تؤخد إلى مـكان لا تريده، فقامت مـن فورها وعملت على تفعيله واستغلال اجمل ما فيه، ودفع شوائبه أو استثمارها، بدأً بعائلتها ومن اليوم الاول، جمعتهم وحدثتهم عن هذا الوضع الجديد. تصحح لهم زاوية النظر، تريـد لهم ان ينظروا اليـه بعين غير عيـون الناس، فهو هم ومسؤولية. طلبت منهـم ان يكونوا أكثر تواضعاً وحرصاً مما مضى حدثتهم انهم الان مكشوفون امام الناس واي خطأ وان كان صغيراً أو غير مقصود سيكون جسيماً ابتداءً من اليوم، وان مساحة الحرية ضاقت عليهم، وبكثر من الحسم والشدة حذرتهـم ان اياكم ثم اياكم ان تميـزوا انفسكم عن الناس، وان الاقتـراب من المساكين والفقراء هو الرد الحقيقي على هذا الابتلاء الجديد.

الايجابيـة الوحيدة لهـذا المنصب هو قربهـا من السيّد

عباس، انتقلت العائلة إلى بيروت، وسكنت إلى جانب مقر الامانة العامة. واصبحت تتابع شؤون السيّد بكل دقائقها، فهي تقرأ له وتكتب وتحدث وتساعد اينما استطاعت، كثيرة الاهتمام حتى بأدق التفاصيل، في لبسه والهندام، حتى الحلاقة، والطعام طعامها على اغلب الاحول، يأخذه ياسر بنفسه إلى ابيه كل يوم، تلك المتابعة الشاملة في كل الاحوال ما لم يكن السيّد في سفر، صحيح انه يغيب طوال النهار ويعود متأخراً في الليل، ولكنه يعود، ولم تعد الجلسات العائلية نادرة، وان اراد السيّد ان يرتاح ساعة في النهار، جاءها ووضع احماله بين يديها وارتاح من تعب في ظل عنايتها الفائقة، يطرد همومه بابتسامة يعرفها دواء وعلاجاً، صمتها والاصغاء، وحديثها الغني ان تحدثت.

ومعه كانت تذهب إلى اماكن قريبة وبعيدة، ومحمد في صحبة اخوته، حيث علمتهم اساليب العناية، تحضر كل شيء قبل المغادرة، فاذا اطمأنت غادرت في حركة رسمتها بعناية مسبقة، تستثمر فيها الوقت والاولويات، لتعود إلى اولادها مفعمة براحة الانجاز.



ظلت على قديمها تتابع شأن الثقافة في كل زاوية مظلمة أو ناقصه، واقترابها القديم من المساكين تضاعف مرارا، وحضورها معهم ومع حاجاتهم تعدى كثيرا ما كان في السابق، ليكون عندها هو المكان الاحب اليها بعد وحشة منصب الامانة العامة، وتحرض طلابها والعاملين بالتطوع

معها بالاهتمام الكبير بهؤلاء الناس، فهم الاقرب إلى الله.

عائلتان تزداد عندهم أم ياسر رقة على رقتها، عوائل الشهداء والعوائل الفقيرة. حبها لعوائل الشهداء لا يدانيه حب، تعاملهم بقداسة، تتبرك بصغارهم، بأثار شهدائهم، وكأنها ذاهبة إلى مكان كل ما فيه مقدس، يحمل عبق الشهادة، لا تتحرج من اظهار ذلك، بل تظهر خجلها منهم، وتنظر اليهم بأكثر من الاحترام، كمن ينظر إلى مقام ارفع منه بكثير، تتأثر تلك العوائل ولا تدري ماذا تفعل أمام كل هذا الذي تبديه زوجة الامين العام لحزب الله. يرتبكون ويبكي بعضهم من شدة تواضعها أمامهم.

وللعائلات الفقيرة يسكن قلبها، ولهم تشعر بالانتماء، تعلن ذلك وتتصرف على اساس هذا الانتماء، تكاد تذوب وهي توصي العاملين في هذه الحقول، من طالبات ومتطوعات، وتشدد على الاهتمام والعناية الفائقة، وحفظ اسرارهم والستر على عيوبهم وضعفهم ومشاكلهم.

- كما تسترون علي حين ترون اخطائي

تقول لهم وتشدد ان هم دخلوا إلى تلك البيوت التي تسميها أم ياسر «البيوت المستورة» وتسبقهم هي بفعلها قبل القول، تتوقف العاملات امامها كل حركتها ذاهلات، يشاهدن كيف تتحدث إلى تلك العائلات، وكيف تحفظ اسماؤهم واحدا واحدا، واسماء الصغار، وكيف تلاطف



الاطفـال، وتتصاغر حتـى تصل إلى سنهـم. ذاهلات امام اخلاقها وتواضعها، وكأنها واحـدة من نساء تلك العائلات، وهي تعلن حبها للمساكين في كل مناسبه، وتردد دائماً:

- اللهم اجعلني مسكينة واحشرني مع المساكين.

تتولى رئاسة فريق المتطوعات في جمعية الامداد التابعة لحـزب الله. والتي تحتضن عدداً كبيراً من عوائل المساكين والفقراء.

تـروي احـدى المتطوعات لأهلها بتأثـر بالغ ما حدث في جمعيـه الامـداد، فقد ارادت الجمعية ان تكـرم تلك العوائل في نشـاط تقوم به وتشرف عليه زوجـة الامين العام لحزب الله «أم ياسر».

تلـك المتطوعة ذهبت مع النقل المخصص للمتطوعات، في طريق طويلة حتى مقر الاحتفال، وصلت سيارة المتطوعات والسيـارة المخصصة لأم ياسر، قبل الناقلات الكبيرة التي تحمل عوائل الفقراء، فحركة السيارات الكبيرة في الطرقات ابطـأ. توجهت المتطوعات إلـى أم ياسر ليأخذن التعليمات، بـكل ذلك الحب الذي تصنعه أم ياسر، مر بعض الوقت قبل ان يكتشـف الجميع ان أم ياسـر لم تكن في السيارة، فحدث ارتباك وخوف، والمطر الشديد يتساقط وتحرك الجميع على عجل، في الوقـت الذي اطلت فيه الحافلات الناقلة للعوائل. لـم تستطع تلـك الحافلات الوصـول إلى الباحـة، فالطريق



اضيق من دخولها، مما اضطر العائلات للسير وكان الطريق موحلاً والمطر شديـد، نزلت العائلات وهي تحمل مظلات، ويتحركـن بسرعة باتجاه الباحة المسقوفة، وبينهن امرأة لا تحمل مظلة، وقد ابتلت تماماً.

تجمـع حولهـا المتطوعات حيـث جلسـت. اقتربت بعض العائلات ليرين ان كان اصاب رفيقتهن مكروها، لقد تعرفن علـى زميلتهن في الحافلة وكانت في غاية اللطف والظرافة، وحين علمن انها زوجـة الامين العام لحزب الله، بكين وهن يحطن بها ويقبلنهـا، وبكت المرافقات حين سمعن أم ياسر تقول:

- لكم اشعر بالاعتزاز والفخر حين اكون بينكم.



درب الوصول

كانت الايام تمضي، فيها من التعب الكثير، ومن العذابات الكثيـر، ولدها محمد والجو العام الضاغط. وما يفرضه جو الامانة العامة والضيوف واشتداد الحركة. وهي التي لا تقبل الخدمـة والمساعدة مـن احد، لكنها سعيـدة بوجودها على مقربـة من السيّد عباس، تتابـع كل شؤونه، واقتراب المنـزل من العمل جعل الفرص متاحة للقاءات عائلية.

يتابـع تلـك المناسبـات حيـث تقـوم عائلتـه بالاحتفاء بـولادات أهل العصمة، التي اعتـادت أم ياسر على اقامتها لعائلتها الصغيـرة، تجمع لها من مالها الخاص قبل وقتها، فالامانـة العامة لـم تستطع تحسين وضعهـم الاقتصادي، لقـد ازدادت تلك العائلة فقـراً بسبب الاعباء الجديدة. في تلـك الاحتفالات المنزلية الصغيـرة، كانت أم ياسر تصنع الحلـوى بنفسهـا، وهي ماهرة في ذلك باعتـراف الجميع، تزيـد من كميتها مـا استطاعت لتوزعهـا على حب صاحب المناسبة.



تنتظـر العائلة تلك المناسبات، وذلـك الاحتفال العائلي

الصغير، وام ياسر تجيد فيها صناعة الفرح، كما تجيد صناعة الطعام والحلوى.

العائلة ومن ضمنها السيّد عباس يحبون تلك المناسبات وينتظرونها بشغف، يحاول السيّد ما استطاع ان يشارك فيها، وكونه كان قريباً من مكان سكنه اراد ان يفعل شيئاً لعزيزته أم ياسر، شيئاً وان كان رمزياً، يريد ان يقول لأولادها كم هي عزيزة امهم، كما فعل قبل الأمانة العامّة.

حين جاءت مناسبة عيد الام، اتفق مع اولاده على الاعداد لها في سرية مطلقة، جعلتهم تلك السرية مضطرين إلى شراء الحلوى والعصائر، واخذ الزينة من حيث تضعها امهم لاستعمالها في مناسبات ولادة الائمة. كل ذلك تم وام ياسر خارج المنزل، لعمل في الشأن العام. تم تزيين المنزل باشتراك الجميع وبقيادة السيّد عباس، وتأكد السيّد من قدرة ياسر على قراءة القصيدة الخاصة بعيد الام، وبعد ان هُيئت المائدة والزهور والشموع، والقى ياسر القصيدة كتمرين أخير. سمعوا خطوات أم ياسر، فالتزموا الصمت واقتربوا مجتمعين في مكان دخولها يحملون اوراق الزهور، حتى محمد الذي كان برفقة ابيه حمل كماً كبيراً منها، ودفعة واحدة كانت السماء تمطر أوراق ورد على أم ياسر. كان الاهتمام بها مميزاً، منعوها من القيام بأدنى حركة، عُوملت كملكة، يقوم على خدمتها زوجها وصغارها في حب إلزامي مُنعت من التحرر منه.



اشهـر طويلـة في الامانـه العامة، لم تتغيـر أم ياسر، ما زادهـا هذا الطريـق الجديد الا عطـاءاً، وجهـداً مضاعفاً، تحث فيـه السير، خطوات ارادت لهـا ان تكون كبيرة بحجم شوقها للوصول:

- «حتـى متـى مولاي، منذ عبـوري إلى ضفتـك وأنا في مسعـاي الوالـه ذاته، لسـت أعلم كم قطعـت، واعلم أن الراحـل اليك قريـب المسافة، لكنـه شوقي اليك سيدي، هـو الذي يجعل المسافة تطـول وان قصرت، هـي اطول مـن قدرتي علـى الاحتمال، لقـد اضناني شوقـي والمسافة مولاي، وبت أئن، لا من تعبي، فليس ألذ من تعبـي اليك، لكنني مذ وجدتك ما عدت اطيق بعداً سيدي. متى تفتح بابك العلوي مولاي؟ انا واميري ببابك نشكو من وجع الشوق اليك..»

مشـاق جديـدة، وخطـى أكثـر جهـداً مـن كل خطواتهـا السابقة... تحث الخطى إلى جانب زوجها، وهي ترتدي قديمها بـلا تغيير، ترتدي حبهـا الذي يتألق ولا يكـف عن الازدحام، حبهـا للشهداء، للمجاهدين، لمجتمعهـا وكل مساكينه، حبها للانسان في كل احواله، فهو اخا بالدين أو بالإنسانية.

تذهب مع السيّد عباس إلى الكثير من الاماكن، تعيش في جهادها، وتغرق في حاجة الناس اليها، تشارك في كل مكان تستطيع فيه المشاركة، وفي كل المناسبات، لا يفوتها ابدا ما هي قادرة عليه، وان كان شاقاً.

وفي ذكـرى الشيـخ راغب حـرب، ذلك الصديـق الفذ، بالرغم من مرور ثمانـي سنوات على استشهاده تبقى ذكراه موعـد مقدسـن، لهـا ولزوجها كموعـد لا بد منـه. عرس في جبشيت، تجدد فيه البيعة أم ياسر مع النساء، ومع صديقتها القديمـة زوجة الشيخ راغب، والسيّد مـع الرجال في ذكرى عزيزة غالية.

قبل الموعد شعر السيّد بمرض أوهن جسده، وتداعت اليه الحمى، ثم تزايد وهن الجسد حتى باتت الحركة عصيّة على الامـكان، واصبح السيّد طريح الفراش، وام ياسر بين يديه، ينظر اليها وتنظر اليه، وكأنهما يتحدثان بالصمت، عن هذا الذي يحدث في مثل هذا الوقت، كأنه يسألها فتجيب، وتسأله فيجيب، حتى اذا جاء الطبيب، وقام بما يقوم به الاطباء من فحص واستماع لمعرفة علّة السيّد، وما الذي اصابه، ليكتب لـه الدواء. لكنه لم يصل إلـى التشخيص الذي يطمئن اليه، فطلـب فحوصا مخبريّـة لتساعده علـى التشخيص الدقيق، كتبها على ورقة، وعلى ورقة ثانية كتب وهو يقول:

- هـذا خافض للحـرارة... وهذه فيتامينـات تساعدك على مقاومة المرض.



ذهـب مـن يأته بالـدواء، واخـذ السيّـد ورقـة التحاليل ووضعها بجانب السرير، فقال الطبيب:

- هذه التحاليل ضرورية ياسيد.. وباقرب وقت.

ابتسم السيّد وهو يقول مداعباً:

- مش محرزه دكتور

هنـاك موعـد لا يمكن تأجيلـه أو إلغـاؤه، بذلك الصمت بينهما قالا أنه موعد عزيز لا نخلفه.

قام الرفيقان «ام ياسر وابو ياسر»، ابتسما وقاما، يعلنان لمـن حولهما ان لا تأجيل، سيذهبان معا إلى عرس جبشيت، كما في كل عـام، حيث يعلنان الولاء لذلـك الخط ويجددان البيعة، يحثان الناس، ويتواصلان مع جمهور المقاومة الذي يحتشد في الذكرى العزيزة.

يأخذ السيّـد دواءه، يتابع ما علق من شؤون ويطمئن على ما هو قائم منها، يتصل بالمشاركين، ويتابع تنظيم الموكب المشـارك، تطمئن أم ياسر علـى كافة تفاصيل المنزل. لقد وعـدت ياسر من قبل ان تأخـذه معها، لكنه استيقظ وبه الم من راسه، اعطته الدواء:

- ارقيني يا امي.

اعتاد على ذلك منها كلما اصابه الم، استمع إلى التمتات وتابـع احـرف الصـوت الخفيض، اغمضـ عينيـه يستقبل اللمسات الحنونة وهي تمسح راسة، فيسري أثرها راحة تكاد تجعلـه يغفو. تساعد حسين الـذي لا يستطيع الوقوف ساكناً لشـدة فرحـه وحماسه، فمرض ياسر مكّنـه من الذهاب مع والديه.



- اهدا شوي خليني اعرف لبسك

تقبل ياسر وبتول وكميل، تحضن محمد ثم تقبل وجهه مرارا:

- محمد حبيب امو

تنظر اليه باسمة في حنان فائض، ثم تنظر إلى اولادها المجتمعين قربها:

- ماتزعلو محمد

تدور عليهم بابتسامتها وهي تخرج، حتى اذا صار جسدها خارج الباب وقفت لحظة تنظر اليهم:

- انتبهو عا حالكن

يمر حسين بالقرب منها ويسبقها نازلاً الدرجات على عجل:

- يالله يا امي

تبتسم لفرح حسين وهي تنزل الدرجات.

يسبقها إلى السيارة، يصعد إلى المقعد الخلفي يزحف ملتصقاً بأبيه، ليفسح في المكان لامه، وهو يشير ضارباً بكفه الصغيرة على المقعد قربه، تصعد أم ياسر في المقعد الخلفي، ثم تقترب وتغلق الباب، على شفتيها ابتسامة ازدحم فيها فرح العالم كله. ابتسامة كأنها نسخة مضغوطة جمعت فيها أم ياسر كل ما كان يظهر على وجهها البشوش طوال تلك السنين.



تـزداد اقترابا، تنظـر إلى السيّد، يتبـادلان حديثاً، يبدو حديثـاً جميلاً وفيه فرح، فعلـى الوجه أكثر من ابتسام. تعود وتنظر إلى النافذة، إلى درجات المنزل، إلى الجبال البعيدة خلـف الافق، وفيما الموكب ينطلق فـي رحلة الوصول، قربت راسها من السيّد وضحكا سوياً، ثم غابا عن الأنظار.

*** *** ***

قبـل افـول شمس ذلك يـوم بقليـل، كان الخبـر العاجل يتكـرر على كافة المحطات الاذاعيـة من اقصى الارض إلى اقصاها، خبر ملحاح مفاده:

قصفـت الطائـرات الاسرائيليـة موكـب السيّـد عباس الموسوي، واصـاب صاروخ المقعد الخلفـي لسيارته اصابة مباشـرة، ممـا ادى إلـى استشهـاده مع وزوجتـه وولده على الفور.

*** *** ***

رحلت أم ياسر في أوّل العقد الثالث من عمرها القصير.

وصلت أم ياسر وبقي سؤال في مكان ما:

لـو لم يكـن السيّـد عباس، هـل كان هناك كـفء لابنة الزهراء أم ياسر؟.



الفهرس

الفصل الأول: تداعيات في سفر





الفصل الثالث: الصعود إلى الوصول













الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا تحسبن الذين قتلوا في
سبيل الله أمواتا بل أحياء
عند ربهم يرزقون

صدق الله العظيم

ضريح الحاجة الفاضلة السيدة المجاهدة
الشهيدة السعيدة

سهام محمد الموسوي

ام ياسر

زوجة سيد شهداء المقاومة الاسلامية

مواليد النبي شيت (ع) ١٩٥٨م

استشهدت على يد قتلة
الانبياء والمرسلين
الصهاينة المجرمين
على رابي جبل عامل
مفرق تفاحتا

بتاريخ ١٢ شعبان ١٤١٢هـ
الموافق ١٦ شباط ١٩٩٢م

